

الباب الثاني

السنة في عصر الصحابة والتابعين

الفصل الأول:

- ١- اقتداء الصحابة والتابعين بالرسول ﷺ.
- ٢- احتياط الصحابة والتابعين وورعهم في رواية الحديث.
- ٣- تثبت الصحابة والتابعين في قبول الحديث.
- ٤- كيف روى الحديث في ذلك العصر.. باللفظ أم بالمعنى؟

الفصل الثاني:

- ١- النشاط العلمي في عصر الصحابة والتابعين.
- ٢- انتشار الحديث في عصر الصحابة والتابعين.
- ٣- الرحلة في طلب الحديث.

الفصل الأول

بين يدي الفصل:

كان مصدر التشريع في عهد الرسول ﷺ كتاب الله وسنة رسوله: ينزل الوحي، فيبلغه النبي الكريم عليه الصلاة والسلام إلى الناس كافة، ويبين مقاصده، ثم يطبق أحكامه، فكان ﷺ المرجع الأعلى في جميع أمور الأمة، في القضاء والفتوى، والتنظيم المالي والسياسي والعسكري: يعالج الأمور على مرأى من أصحابه رضی الله عنهم، وعلى ضوء القرآن الكريم، فإن وجد حكماً للقضية فصل فيها، وإن لم يجد اجتهد فيها حيناً، أو انتظر الوحي أحياناً، ليعرف حكم الله تعالى، وقد يجتهد فينزل الوحي مصححاً لاجتهاده، لأن الله عز وجل لا يقر رسوله على الخطأ.

ثم ما لبث أن انتقل محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وانقطع الوحي. ولم يبق أمام الأمة إلا القرآن العظيم والسنة الشريفة، مصداقاً لقوله ﷺ: «ترك فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي»^(١). وتمسك الصحابة والتابعون بسنته عليه الصلاة والسلام اتباعاً لأوامر الله تعالى بطاعته وقبول حكمه في قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] وقوله: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

والاستجابة لرسول الله ﷺ واجبة في حياته وبعد وفاته. وقد امتثل الصحابة لأوامر الله تعالى في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ونفذوها مخلصين، وحموا الشريعة بالمال والدماء، وكذلك فعلوا بعد وفاته، وقوفاً عند وصيته عليه الصلاة والسلام،

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک، وانظر: جامع بيان العلم وفضله ص ١٨٠ ج ٢.

التي سمعها منه الصحابة رضوان الله عليهم، ويرويها العرياض ابن سارية رضى الله عنه فيقول: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودع، فأوصنا. قال: أوصيكم بتقوى الله عز وجل، والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة^(١)» فأخذوا بسنته عليه الصلاة والسلام، وتمسكوا بها، وأبوا أن يكونوا ذلك الرجل الذي ينطبق عليه قوله عليه الصلاة والسلام: «يوشك الرجل متكئاً على أريكته يحدث بحديث من حديثي فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله^(٢)»، بل وقفوا من السنة موقفاً عظيماً، وردوا على كل من فهم ذلك الفهم. روى أبو نضرة عن عمران بن حصين: «أن رجلاً أتاه فسأله عن شيء، فحدثه، فقال الرجل حدثوا عن كتاب الله عز وجل، ولا تحدثوا عن غيره. فقال إنك امرؤ أحمق!! أتجد في كتاب الله صلاة الظهر أربعاً لا يجهر فيها، وعد الصلوات، وعد الزكاة ونحوها، ثم قال: أتجد هذا مفسراً في كتاب الله؟ كتاب الله قد أحكم ذلك، والسنة تفسر ذلك^(٣)». وقال رجل للتابعي الجليل مطرف بن عبد الله بن الشخير: لا تحدثونا إلا بالقرآن. فقال له مطرف: «والله ما نريد بالقرآن بدلاً، ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا^(٤)».

وسنستعرض الآن تأسى الصحابة والتابعين بالرسول وتمسكهم بالسنة المطهرة، ثم احتياطهم وورعهم في رواية السنة، ثم تثبتهم في قبول الأخبار والآثار عن النبي ﷺ.

- (١) الحديث الثامن والعشرون من الأربعين النووية ص ٦٧ وقال رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح. وأقول رواه أيضاً الدارمي في سنته انظر: سنن الدارمي ص ٢٦، طبعة سنة ١٣٩٣ هـ.
- (٢) سنن ابن ماجه ص ١٥ ج ١ وسنن البيهقي ص ٦ ج ١ رواه المقدم بن معدى كرب.
- (٣) كتاب العلم للمقدسي مخطوطة الظاهرية ص ٥١ وجامع بيان العلم وفضله ص ١٩١ ج ٢.
- (٤) جامع بيان العلم وفضله ص ١٩١ ج ٢.

اقتداء الصحابة والتابعين بالرسول ﷺ

لقد استجاب المسلمون الأوائل إلى قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فتفانوا في اتباع محمد ﷺ، وساروا على هديه، وهذه صور سريعة عن تمسكهم بالسنة النبوية، تتناول أحوال الرعية والرعاة في مختلف جوانب الحياة.

فها هو ذا أبو بكر الصديق يعقد لواء أسامة بن زيد، ويأبى أن يحتفظ بجيشه وهو في أشد الحاجة إليه، ويقول: ما كان لى أن أحل لواء عقده رسول الله ﷺ، ويعقد اللواء لخالد بن الوليد ليقاتل المرتدين، ويقول: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد، وسيف من سيوف الله سله الله عز وجل على الكفار والمنافقين^(١)».

وتأتيه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، تطلب سهم رسول الله عليه الصلاة والسلام، فيقول لها: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل إذا أطعم نبياً طعمةً، ثم قبضه جعله للذي يقوم من بعده، فرأيت أن أرده على المسلمين، فقالت: فأنت وما سمعت من رسول الله ﷺ أعلم^(٢)» وقال في رواية: «لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، وإني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ^(٣)».

ولما ارتد مسيلمة الكذاب وقومه قال عمر لأبى بكر رضى الله عنها: «تقاتلهم وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله تعالى) -؟

(١) مسند الامام أحمد ص ١٧٣ ج١ بإسناد صحيح عن أبى بكر.

(٢) مسند الامام أحمد ص ١٦٠ ج١ بإسناد صحيح ونحوه فى ص ١٧٧، ١٧٨ ج١.

(٣) مسند الإمام أحمد ص ١٦٧ ج١ بإسناد صحيح من حديث طويل.

فقال أبو بكر: والله لا أفرق بين الصلاة والزكاة، لأقاتلن من فرق بينهما. قال أبو هريرة فقاتلنا معه فرأينا ذلك رشداً^(١).

وعن السائب بن يزيد ابن أخت عمر أن حويطب بن عبد العزى أخبره أن عبد الله بن السعدى أخبره: أنه قدم على عمر بن الخطاب فى خلافته، فقال له عمر ألم أحدث أنك تلى من أعمال الناس أعمالاً، فإذا أعطيت العمالة كرهتها؟ قال: فقلت: بلى. فقال عمر: فما تريد إلى ذلك؟ قال: قلت: إن لى أفراساً وأعبداً وأنا بخير، وأريد أن تكون عمالتي صدقة على المسلمين، فقال عمر: فلا تفعل، فإنى قد كنت أردت الذى أردت، فكان النبى ﷺ يعطينى العطاء فأقول: أعطه أفقر إليه منى، حتى أعطانى مرةً مالاً فقلت: أعطه أفقر إليه منى، قال: فقال له النبى ﷺ: «خذه فتموله وتصدق به، فما جاءك من هذا المال، وأنت غير مشرف ولا سائل فخذ، وما لا فلا تتبعه نفسك»^(٢).

وعن فروخ مولى عثمان: أن عمر - وهو يومئذ أمير المؤمنين - خرج إلى المسجد، فرأى طعاماً منشوراً، فقال: ما هذا الطعام؟ فقالوا: طعام جلب إلينا. قال: بارك الله فيه وفيمن جلبه، قيل يا أمير المؤمنين: فإنه قد احتكر، قال: ومن احتكره؟ قالوا: فروخ مولى عثمان وفلان مولى عمر؛ فأرسل إليهما فدعاهما، فقال: ما حملكما على احتكار طعام المسلمين؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، نشترى بأموالنا ونبيع. فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالإفلاس أو بجذام» فقال فروخ عند ذلك: يا أمير المؤمنين، أعاهد الله وأعاهدك أن لا أعود فى طعام أبداً، وأما مولى عمر فقال: إنما نشترى بأموالنا ونبيع قال أبو يحيى: فلقد رأيت مولى عمر مجدوماً^(٣).

(١) مسند الإمام أحمد ص ١٨١ ج ١ بإسناد صحيح، ما بين القوسين الكبيرين نص الحديث الذى ذكره أبو هريرة أولاً ثم ذكر مناقشة عمر وأبى بكر رضى الله عنهما.

(٢) مسند الإمام أحمد ص ١٩٧ ج ١ بإسناد صحيح قال الحافظ ابن حجر فى التهذيب ج ٣ ص ٦٦، ٦٧ فى ترجمة حويطب (روى له الشيخان والنسائى حديثاً واحداً فى العمالة، وهو الذى اجتمع فى إسناده أربعة من الصحابة) يريد هذا الحديث والصحابة الأربعة: هم السائب وحويطب وعبد الله بن السعدى وعمر) انظر: هامش ص ١٩٧ ج ١ من مسند أحمد. ومعنى مشرف فى الحديث: متطلع إلى المال.

(٣) مسند الإمام أحمد ص ٢١٤ حديث ١٣٥ ج ١ بإسناد صحيح وأبو يحيى المكى هو راوى الحديث عن فروخ.

وفى وقعة اليرموك كتب القادة إلى عمر بن الخطاب: «إنه قد جاش إلينا الموت» يستمدونه، فكان فيما أجابهم «إني أدلكم على من هو أعز نصراً، وأحضر جنداً، الله عز وجل، فاستنصره، فإن محمداً ﷺ، قد نصر يوم بدر فى أقل من عدتكم، فإذا أتاكم كتابى هذا فقاتلوهم ولا تراجعونى»^(١)!!

هكذا كان الصحابة يتمسكون بهدى النبى ﷺ وسنته، ولو كانوا يشرفون على الموت والهلاك.

وكان الصحابة جميعاً يحرصون على سنن النبى عليه الصلاة والسلام، ويأمر بعضهم بعضاً باتباعها، من ذلك أن عمر بن الخطاب رأى زيد بن خالد الجهنى يركع بعد العصر ركعتين فمشى إليه وضربه بالدره، فقال له زيد: يا أمير المؤمنين، اضرب فوالله لا أدعهما بعد أن رأيت رسول الله ﷺ يصليهما، فقال له عمر: يا زيد، لولا أنى أخشى أن يتخذ الناس سلماً إلى الصلاة حتى الليل لم أضرب فيها^(٢).

ويرى عمر رضى الله عنه الناس قد أقبلوا على طيبات الدنيا مما أحل لهم الله تعالى، فيذكرهم برسولهم ﷺ، فيقول: «لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوى، ما يجد دقلاً يملاً به بطنه»^(٣).

لقد كان عمر رضى الله عنه وصحابة رسول الله ﷺ يتأسون بالرسول الكريم ما استطاعوا فى جميع أحوالهم، فلما طعن عمر رضى الله عنه قيل له: ألا تستخلف؟ فقال: إن أترك فقد ترك من هو خير منى: رسول الله ﷺ، وإن أستخلف فقد استخلف من هو خير منى: أبو بكر^(٤).

حدث مالك بن عبد الله الزيدى عن أبى ذر: أنه جاء يستأذن على عثمان ابن عفان فأذن له ويده عصاه، فقال عثمان: يا كعب، إن عبد الرحمن توفى

(١) مسند الإمام أحمد ص ٣٠٤ ج ١.

(٢) كتاب الإجابة لإبراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ٩٢، وقد روى الإمام مسلم عن أنس قال: كان عمر يضرب الأيدي على صلاة بعد العصر.

(٣) مسند الإمام أحمد ص ٣٠٧، ٣٢٤ بإستاد صحيح، والدقل هو ردىء التمر ويابس.

(٤) المرجع السابق ص ٢٨٤ ج ١.

وترك مالا فما ترى فيه؟ فقال: إن كان يصل فيه حق الله فلا بأس عليه، فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعبا، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما أحب لو أن لى هذا الجبل ذهباً أنفقته ويتقبل منى أذر خلفى منه ست أواق»، أنشدك الله يا عثمان، أسمعته؟ ثلاث مرات قال: نعم^(١).

وقال عطاء الخراسانى: سمعت سعيد بن المسيب يقول: رأيت عثمان قاعدا فى المقاعد، فدعا بطعام مما مسته النار فأكله، ثم قام إلى الصلاة فصلى، ثم قال عثمان: قعدت مقعد رسول الله ﷺ، وأكلت طعام رسول الله وصليت صلاة رسول الله ﷺ^(٢).

وعن مسيرة بن يعقوب الطهوى قال: رأيت عليا يشرب قائماً. قال فقلت له: تشرب قائماً؟! فقال: إن أشرب قائماً فقد رأيت رسول الله ﷺ يشرب قائماً، وإن أشرب قاعدا فقد رأيت رسول الله ﷺ يشرب قاعدا^(٣).

وعن عبد خير بن يزيد الخيوانى الهمدانى (تابعى) عن على (رضى الله عنه) قال: كنت أرى أن باطن القدمين أحق بالمسح من ظاهرهما، حتى رأيت رسول الله ﷺ يمسح ظاهرهما^(٤).

وعن على بن ربيعة قال: رأيت عليا أتى بدابة ليركبها، فلما وضع رجله فى الركاب قال: باسم الله، فلما استوى عليها قال: الحمد لله، سبحانه الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، ثم حمد الله ثلاثا وكبر ثلاثا، ثم قال: سبحانه لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسى، فاغفر لى، ثم ضحك، فقلت: مم ضحكت يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل

(١) مسند الإمام أحمد ص ٣٥٧ ج ١ بإسناد صحيح.

(٢) المرجع السابق ص ٣٧٨ ج ١ بإسناد صحيح. ويظهر أن المقاعد مكان فى المسجد كانوا يتوضؤون عنده، وقد ورد ذكره فى حديث رواية عثمان لوضوء الرسول الله ﷺ.

(٣) مسند الإمام أحمد ص ١٧٩ حديث ٩١٦ ج ٢ بإسناد حسن ومن طريق زاذان أن على بن أبى طالب شرب قائما فنظر إليه الناس كأنهم أنكروه، فقال: ما تنظرون؟ إن أشرب قائما الحديث بإسناد صحيح نفس المرجع ص ١٣٠ ج ٢ حديث ٧٩٥.

(٤) مسند الإمام أحمد ص ١٠٣ حديث ٧٣٧، ٩١٧ ج ٢ بإسناد صحيح.

ما فعلت، ثم ضحك فقلت: مم ضحكت يا رسول الله؟ قال: «يعجب الرب من عبده إذا قال رب اغفر لي، ويقول علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري»^(١).

وكان الصحابة يتأسون بالرسول الكريم، ويحافظون على سنته، سواء أعرفوا علة ذلك أم لم يعرفوا، وسواء أتوقعوا حكمة لما يفعلون أم لم يتوقعوا، وقد اشتهر عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما بمحافظته الشديدة على سنن رسول الله ﷺ، فكان الرسول أسوته فى كل شىء، فى صلاته وحجه وصيامه، حتى فى قضاء حاجته^(٢) وكان كثيراً ما يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وكان إذا سمع من الرسول ﷺ شيئاً، أو شهد معه مشهداً، لم يقصر دونه أو يعدوه^(٣)، كان يقف عند الحد الوارد فى الحديث أو الفعل النبوى من غير إفراط ولا تفريط. عن مجاهد قال كنا مع ابن عمر فى سفر، فمر بمكان فحاد عنه، فستل: لم فعلت؟ فقال: رأيت رسول الله ﷺ فعل هذا ففعلت^(٤)، وكان يأتى شجرة بين مكة والمدينة فيقبل تحتها، ويخبر أن النبى عليه الصلاة والسلام كان يفعل ذلك^(٥).

ووقف عمر بن الخطاب على الركن قائلاً: «إنى لأعلم أنك حجر، ولو لم أرحببى ﷺ قبلك أو استلمك ما استلمتك ولا قبلتك» ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾^(٦).

وكان ينهى أن يزيد إنسان على ما فعله رسول الله ﷺ قال يعلى بن أمية: طفت مع عمر بن الخطاب، فلما كنت عند الركن الذى يلى الباب مما يلى الحجر، أخذت بيده ليستلم، فقال: أما طفت مع رسول الله ﷺ؟ قلت: بلى، قال: فهل

(١) مسند الإمام أحمد ١٠٩ حديث ٧٥٣ ج٢.

(٢) راجع مسند الإمام أحمد ص ١٩١ حديث ٦٣٩١، ٦١٥١ ج٩.

(٣) انظر: مسند الإمام أحمد ص ٢٩٧ حديث ٥٥٤٦ ج٧ بإسناد صحيح، وسنن ابن ماجه ص ٣ ج١.

(٤) مسند الإمام أحمد ص ٥٤ حديث ٤٨٧٠ ج٧ بإسناد صحيح.

(٥) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى ص ١٢٦ وقد أخرجه البزار.

(٦) مسند الإمام أحمد ص ٢١٣، ١٩٧ ج١ بإسناد صحيح.

رأيته يستلمه؟ قلت: لا. قال: فانفذ عنك، فإن لك في رسول الله أسوة حسنة^(١).

وقال علي رضي الله عنه في القيام للجنابة: قد رأينا رسول الله ﷺ قام فقمنا، وقعد فقعدنا^(٢).

وكان رسول الله ﷺ قد أمر الصحابة ومن معه يوم الفتح بأن يكشفوا عن مناكبهم، ويهرولوا في الطواف، ليرى المشركون قوتهم وجلدهم، وقويت دولة الإسلام ورأى عمر أن هذا الأمر قد ذهب علته، ولكنه قال: فيم^(٣) الرملان الآن والكشف عن المناكب، وقد أطأ الله الإسلام ونفى الكفر وأهله؟ ومع ذلك لا ندع شيئاً كنا نفعله على عهد رسول الله ﷺ^(٤).

وقيل لعبد الله بن عمر: لا نجد صلاة السفر في القرآن؟ فقال ابن عمر: إن الله عز وجل بعث إلينا محمداً ﷺ، ولا نعلم شيئاً فإنما نفعل كما رأينا محمداً ﷺ يفعل^(٥). وفي رواية قال: وكنا ضلالاً فهدانا الله به، فيه نفتدى^(٦).

كان الصحابة رضي الله عنهم لا يرضون ترك سنة كان عليها رسول الله ﷺ ولا يقبلون مع السنة رأى أحد مهما كان شأنه، ومهما علت مكاتته بل كانوا يغضبون غضباً شديداً وينكرون إنكاراً قوياً على من لا يستجيب لسنة سنه الرسول الكريم، أو لخلق تخلق به، ولو كان من ينكرون ذلك عليهم ولدهم أو أقرب الناس إليهم.

(١) مسند الإمام أحمد ص ٢٦٥ ج ١ بإسناد صحيح.

(٢) مسند الإمام أحمد ص ٥٢ ج ٢ بإسناد صحيح.

(٣) في الأصل (فيما) وانظر الهامش التالي.

(٤) مسند الإمام أحمد ص ٢٩٣ حديث ٣١٧ ج ١ بإسناد صحيح أطأ: ثبت وأرسي والهمزة فيه بدل واو (وطأ). فيما: استفهامية وظاهر كلام النحويين وجوب حذف ألفها إذا دخل عليها حرف الجر، ولكن قرأ عبد الله وأبي وعكرمة وعيسى (عما يتساءلون) بالالف.

(٥) مسند الإمام أحمد ص ٦٨ حديث ٥٦٨٣ ج ٨ وص ٢٠٩ حديث ٥٣٣٣ ج ٧ والسائل في الحديث المذكور هو خالد بن أسيد.

(٦) المرجع نفسه ص ٧٧ حديث ٥٦٩٨ ج ٨.

من ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن عبد الله بن مغفل^(١) أنه كان جالساً إلى جنبه ابن أخ له، فخذف^(٢)، فنهاه وقال: إن رسول الله ﷺ نهى عنها وقال: «إنها لا تصيد صيدا ولا تنكى عدوا، وإنها تكسر السن، وتفقأ العين». قال: فعاد ابن أخيه يخذف فقال: أحدثك أن رسول الله ﷺ نهى عنها، ثم عدت تخذف إذا لا أكلمك أبدا!!^(٣).

وعن سالم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تمنعوا إماء الله أن يصلين في المسجد»، فقال ابن له: إنا لنمنعهن، فقال: فغضب غضباً شديداً وقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول: إنا لنمنعهن^(٤). وفي رواية فاتهره عبد الله، قال: أف لك!! أقول: قال رسول الله ﷺ وتقول: لا أفعل^(٥).

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: تمتع النبي ﷺ، فقال عروة بن الزبير: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة!! فقال ابن عباس: ما يقول عروة؟ قال: يقول نهى أبو بكر وعمر عن المتعة!! فقال ابن عباس: أراهم سيهلكون! أقول: قال النبي ﷺ، ويقول: نهى أبو بكر وعمر^(٦)!!

وهذا عبادة بن الصامت الأنصاري، النقيب، صاحب رسول الله ﷺ، غزا مع معاوية أرض الروم، فنظر إلى الناس وهم يتبايعون كسر الذهب بالدنانير، وكسر الفضة بالدراهم، فقال: يأبها الناس، إنكم تأكلون الربا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تتبايعوا بالذهب بالذهب إلا مثلاً بمثل، لا زيادة بينهما، ولا نظرة»، فقال له

(١) عبد الله بن مغفل صحابي جليل من أصحاب الشجرة روى عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعثمان وغيرهم، وعنه روى ثابت البناني... سكن المدينة ثم تحول إلى البصرة وتوفي فيها سنة (٥٧) هـ وقيل ٦١ وقيل ٦٠. انظر تهذيب التهذيب ج٦ ص ٤٢.

(٢) خذف: من الخذف وهو أن يجعل الحصة أو النواة بين سبائتيه ويرمى بها.

(٣) سنن ابن ماجه ص٦ ج١.

(٤) سنن ابن ماجه ص٦ ج١ ونحوه في مسند الإمام أحمد ص٢٦٦ حديث ٥٤٦٨ ج٧ بإسناد صحيح.

وإبن عبد الله بن عمر هذا هو بلال: كما ذكره في الحديث رقم ٥٦٤٠ من المسند في ص٤٣ ج٨.

(٥) مسند الإمام أحمد ص٢٩٠ حديث ٦١٠١ ج٨ وص١٣٢ حديث ٦٢٩٦ ج٩ بإسناد صحيح وانظر نحوه في جامع بيان العلم ص١٩٥ ج٢.

(٦) مسند الإمام أحمد ص٤٨ حديث ٣١٢١ ج٥ بإسناد صحيح.

معاوية: يا أبا الوليد لا أرى الربا في هذا إلا ما كان من نظرة، فقال عبادة: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتحديثي عن رأيك، لئن أخرجني الله لا أساكنك بأرض لك على فيها إمرة فلما قفل لحق بالمدينة، فقال له عمر بن الخطاب: ما أقدمك يا أبا الوليد؟ فقص عليه القصة، وما قال من مساكنته. فقال: ارجع يا أبا الوليد إلى أرضك، قبح الله أرضا لست فيها وأمثالك، وكتب إلى معاوية، لا إمرة لك عليه، وأحمل الناس على ما قال، فإنه هو الأمر^(١).

أولئك صحابة رسول الله الذين حفظوا سنته، ووجهوا الأمة إلى السبيل القويم، وحملوا الأمراء على تطبيق أحكام الشريعة، وأبوا أن يماروا في دين الله صادعين بالحق، لا يخافون فيه لومة لائم.

وعن الزبير بن عري قال: سمعت رجلا يسأل ابن عمر عن الحجر قال: رأيت رسول الله ﷺ يستلمه ويقبله، فقال رجل: أرأيت إن زحمت؟ فقال ابن عمر: اجعل (أرأيت) باليمن!! رأيت رسول الله يستلمه ويقبله^(٢).

وعن وبرة بن عبد الرحمن قال: أتى رجل إلى ابن عمر فقال: أ يصلح أن أطوف بالبيت وأنا محرم؟ قال: ما يمنعك من ذلك؟. قال: إن فلانا ينهانا عن ذلك حتى يرجع الناس من الموقف، ورأيت أنه مالت به الدنيا، وأنت أعجب إلينا منه. قال ابن عمر: حج رسول الله ﷺ، فطاف بالبيت، وسعى بين الصفا والمروة، وسنة الله تعالى ورسوله أحق أن تتبع من سنة ابن فلان، إن كنت صادقا^(٣). وفي رواية أخرى صرح بأن الذي كنى عنه بفلان هو ابن عباس.

(١) سنن ابن ماجه ص ٧ ج ١. كسرة الذهب كالتقطعة لفظا ومعنى، وجمعها كسر كقطع، نظرة: انتظار أى أجل.

(٢) مسند الإمام أحمد ص ١٩٤ ج ٩ بإسناد صحيح وقد أخرجه البخارى. ومن الخطأ أن يظن ظان من قول ابن عمر أن اليمن كانت تعتمد على رأى إنما ضرب اليمن مثلا لجهة قاصية يرمى إليها هذا الاعتراض أدبا مع السنة النبوية، مبينا أنه لا مجال للسؤال والجواب إذا ما وجدت السنة فى أمر ما، ويدل على ذلك رواية الطيالسى وفيها اجعل (أرأيت) مع هذا الكوكب.

(٣) مسند الإمام أحمد ص ١٦٩ حديث ٥١٩٤ ج ٧ بإسناد صحيح.

وكان عبد الله بن عمر يفتى بالذي أنزل الله عز وجل من الرخصة بالتمتع وبما سن رسول الله ﷺ فيه، فيقول ناس لابن عمر: كيف تخالف أباك وقد نهى عن ذلك؟ فيقول لهم عبد الله: ويلكم!! ألا تتقون الله؟ إن كان عمر نهى عن ذلك فيبتغى فيه الخير يلتمس به تمام العمرة، فلم تحرمون ذلك وقد أحله الله وعمل به رسول الله عليه الصلاة والسلام؟! أفرسول الله ﷺ أحق أن تتبعوا سنته أم سنة عمر؟ إن عمر لم يقل لكم إن العمرة في أشهر الحج حرام، ولكنه قال إن أتم العمرة أن تفردوها من أشهر الحج^(١).

وفى ختام ذلك أسوق تمسك عبد الله بن عمرو بن العاص بعبادته التي فارق عليها رسول الله ﷺ، فقد كان عبد الله بن عمرو من أعبد الصحابة وأورعهم وأزهدهم، كثير الصيام والقيام، وكان رسول الله ﷺ قد رخص له أن يصوم أياماً من كل شهر إلا أنه وجد في نفسه القوة على الصيام.

وأراد أن يصوم الدهر كله، وفى آخر أيامه ضعف عن ذلك فقال: «لأن أكون قبلت رخصة رسول الله ﷺ أحب إلي مما عدل به أو عدل. لكنى فارقت على أمر أكره أن أخالفه إلى غيره»^(٢).

(١) مسند الإمام أحمد ص ٧٧ حديث ٥٧٠٠ ج ٨ وإسناده صحيح. وفى الموطأ كما رواه محمد: مالك عن نافع، أن عمر بن الخطاب قال: «افصلوا بين حجبتكم وعمرتكم، فإنه أتم الحج أحدكم وأتم لعمرته أن يعتمر فى غير أشهر الحج» انظر: هامش صفحة ٧٨ فى الجزء الثامن.

(٢) مسند الإمام أحمد ص ٢٤٠ حديث ٦٤٧٧ ج ٩.

عدل به: أى وزن. أى من كل شىء يقابل ذلك من الدنيويات، أو عدل أى ساوى والمعنى مقارب فى الحرفين:

وانظر: الرسالة ص ٤٤٦ فيها أخبار عن تمسك بعض انصحابه بالسنة وعدم قبول رأى لأحد مع حديث رسول الله ﷺ.

احتياط الصحابة والتابعين في رواية الحديث

لقد عرف الصحابة منزلة السنة فتمسكوا بها، وتبعوا آثار الرسول ﷺ، وأبوا أن يخالفوها متى ثبتت عندهم، كما أبوا أن ينحرفوا عن شيء، فارقهم عليه، واحتاطوا في رواية الحديث عنه عليه الصلاة والسلام، خشية الوقوع في الخطأ، وخوفاً من أن يتسرب إلى السنة المطهرة الكذب أو التحريف، وهي المصدر التشريعي الأول بعد القرآن الكريم، ولهذا اتبعوا كل سبيل يحفظ على الحديث نوره، فأثروا الاعتدال في الرواية عن رسول الله ﷺ، بل إن بعضهم فضل الإقلال منها، قال ابن قتيبة: «كان عمر شديد الإنكار على من أكثر الرواية، أو أتى بخبر في الحكم لا شاهد له عليه، وكان يأمرهم بأن يقلوا الرواية، يريد بذلك ألا يتسع الناس فيها، ويدخلها الشوب، ويقع التدليس والكذب من المنافق والفاجر والأعرابي، وكان كثير من جلة الصحابة وأهل الخاصة برسول الله ﷺ، كأبي بكر والزبير وأبي عبيدة والعباس بن عبد المطلب - يقلون الرواية عنه، بل كان بعضهم لا يكاد يروى شيئاً كسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة^(١)».

والتزم الصحابة - في الخلافة الراشدة - منهاج عمر رضى الله عنه، وأتقنوا أداء الحديث، وضبطوا حروفه ومعناه^(٢)، وكانوا يخشون كثيراً أن يقعوا في الخطأ، لذلك نرى بعضهم - مع كثرة تحملهم عن الرسول ﷺ - لا يكثر من الرواية في ذلك العهد، حتى إن منهم من كان لا يحدث حديثاً في السنة، ونرى من تأخذه الرعدة، ويقشعر جلده، ويتغير لونه ورعاً واحتراماً لحديث رسول الله ﷺ، ومن هذا، ما رواه عمرو بن ميمون قال: ما أخطأني ابن مسعود عشية خميس إلا أتيته فيه، قال: فما سمعته يقول بشيء قط «قال رسول الله ﷺ» فلما كان ذات عشية قال: «قال رسول الله ﷺ»، قال: فنكس، قال فنظرت إليه، فهو قائم محللة أزرار

(١) تأويل مختلف الحديث: ٤٨، ٤٩.

(٢) انظر: المبحث الرابع من الفصل الأول في الباب الثاني فيما يلي، وقد بينت فيه كيف روى الحديث.

قميصه، قد اغرورقت عيناه، وانتفخت أوداجه، قال: أو دون ذلك، أو فوق ذلك، أو قريباً من ذلك، أو شبيهاً بذلك^(١) .

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: لولا أني أخشى أن أخطئ لحديثكم بأشياء سمعتها من رسول الله ﷺ^(٢) . وكان إذا حدث عن رسول الله ﷺ حديثاً ففرغ منه، قال: أو كما قال رسول الله ﷺ^(٣) ، وكذلك كان يفعل أبو الدرداء وغيره .

وجالس الشعبي ابن عمر سنة فما سمعه يحدث عن رسول الله ﷺ شيئاً^(٤) .

وروى عن أنس أنه قال: إنه ليمنعني أن أحدثكم حديثاً كثيراً أن النبي ﷺ قال: «من تعمد على كذباً فليتبوأ مقعده من النار»^(٥) .

وعن ثابت البناني: أن بنى أنس بن مالك قالوا لأبيهم: يا أبانا، ألا تحدثنا كما تحدث الغرباء؟ قال: أي بنى إنه من يكثر بهجر^(٦) .

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: «أدركت مائة وعشرين من الأنصار من أصحاب محمد ﷺ، ما منهم أحد يحدث بحديث إلا ود أن أخاه كفاه إياه، ولا يستفتى عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه إياه». وفي رواية: «يسأل أحدهم المسألة فيردها هذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول»^(٧) .

وقال مجاهد: صحبت ابن عمر من مكة إلى المدينة. فما سمعته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا هذا الحديث: «مثل المؤمن مثل النخلة»^(٨) .

(١) سنن ابن ماجه ص ٨ ج ١ . نكس أى طأطأ رأسه وخفضه .

وانظر: نحوه فى مسند الإمام أحمد ص ٤٦ حديث ٤٠١٥ ج ٦ وفى الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ٩٨ أ .

(٢) سنن الدارمى ص ٧٧ ج ١ .

(٣) سنن ابن ماجه ص ٨ ج ١ وسنن الدارمى ص ٨٤ ج ١ والسنن الكبرى لليهقى ص ١١ ج ١ .

(٤) سنن الدارمى ص ٨٤ ج ١ وانظر: السنن الكبرى ص ١١ ج ١ وأخرجه ابن ماجه فى سننه ص ٨ ج ١ .

(٥) صحيح البخارى بحاشية السندي ص ٣١ ج ١ .

(٦) طبقات ابن سعد ص ١٤ ج ٧ .

(٧) مختصر كتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول ص ١٣ .

(٨) انظر صحيح مسلم ص ٢١٦٥ ج ٤ . وقبول الأخبار ص ٢٥ .

وقال السائب بن يزيد إنه صحب سعد بن أبي وقاص من المدينة إلى مكة، قال: فما سمعته يحدث عن النبي ﷺ حديثاً حتى رجع (١).

وعن عبد الله بن الزبير، قال: قلت للزبير بن العوام: مالي لا أسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما أسمع ابن مسعود وفلانا وفلانا؟ قال: أما إنني لم أفارقه منذ أسلمت، ولكني سمعت منه كلمة يقول: «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» (٢) وفي رواية: سمعته يقول: «من كذب على فليتبوأ مقعده من النار» (٣).

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: قلنا لزيد بن أرقم: حدثنا عن رسول الله ﷺ، قال: كبرنا ونسينا، والحديث عن رسول الله ﷺ شديد (٤).

هكذا تشدد الصحابة في الحديث، وأمسك بعضهم عنه كراهية التحريف، أو الزيادة والنقصان في الرواية عن الرسول ﷺ لأن كثرة الرواية كانت في نظر كثير منهم مظنة الوقوع في الخطأ، والكذب على رسول الله ﷺ، وقد نهى رسول الله عن الكذب عليه وعن رواية ما يرى أنه كذب، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «من روى عنى حديثاً وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين» (٥).

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع» (٦).

(١) طبقات ابن سعد ص ١٠٢ - ١٠٣، وانظر: سنن ابن ماجه ص ٩ ج ١ وسنن البيهقي ص ١٢ ج ١، وانظر: المحدث الفاضل ص ١٣٤: أ وفي قبول الأخبار ص ٢٥ أنه صحب طلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، والمقداد بن الأسود... الحديث.

(٢) سنن ابن ماجه ص ١٠ ج ١ وقوله «أما إنني لم أفارقه» يعنى به أنه ذلك ليس لقله صحبه.

(٣) الكفاية ص ١٠٢ وأخرجه البخارى كذلك: انظر: فتح البارى ص ٢١٠ ج ١ وانظر: المصباح المضيء ص ٢٠: ب وتمييز المرفوع عن الموضوع ص ٢: ب.

وفي رواية الكفاية قال قلت لأبي الزبير... الحديث.

وانظر: طبقات ابن سعد ص ٧٥ قسم ١ ج ٣ من طريق وهب بن جرير وقال بعد رواية الحديث: والله ما قال متعمداً وأنتم تقولون متعمداً.

(٤) سنن ابن ماجه ص ٨ ج ١ وسنن البيهقي ص ١١ ج ١٠ والمحدث الفاضل ص ١٣٢: أ.

(٥) مقدمة التمهيد لابن عبد البر ص ١١.

(٦) مقدمة التمهيد ص ١١ وفي رواية ابن مسعود (إنما) بدل (كذباً) وانظر تذكره الحفاظ ص ١٥ ج ١.

وكان الصحابة رضى الله عنهم يخشون أن يقعوا فى الكذب عامة، فكيف يكذبون على رسول الله ﷺ؟ قال على رضى الله عنه: «إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ حديثاً فلأن أخرج من السماء أحب إلى من أن أكذب عليه...»^(١).

وقد تشدد عمر بن الخطاب فى تطبيق هذا المنهاج، فحمل الناس على التثبت مما يسمعون، والتروى فيما يؤدون، فكان له الفضل الكبير فى صيانة الحديث من الشوائب والدخل، وقد طبق ذلك الصحابة أيضاً، يقول ابن مسعود: ليس العلم بكثرة الحديث، ولكن العلم الخشية^(٢).

ويصور لنا أبو هريرة رضى الله عنه محافظة الصحابة على السنة فى عهد عمر بإجابته عن سؤال طرحه عليه أبو سلمة، قال له: أكنت تحدث فى زمان عمر هكذا؟ فقال: لو كنت أحدث فى زمان عمر مثل ما أحدثتكم لضربنى بمخفقتة^(٣)! وفى رواية قال: لقد حدثتكم بأحاديث لو حدثت بها زمن عمر لضربنى عمر بالدرية^(٤).

وقد كان تشدد عمر هذا والصحابة معه للمحافظة على القرآن الكريم، بجانب المحافظة على السنة، فقد خشى أن يشتغل الناس بالرواية عن القرآن الكريم، وهو دستور الإسلام، فأراد أن يحفظ المسلمون القرآن جيداً، ثم يعتنوا بالحديث الشريف الذى لم يكن قد دون كله فى عهد الرسول ﷺ كالقرآن. فنهج لهم التثبت العلمى والإقلال من الرواية مخافة الوقوع فى الخطأ وقد عرف إتقان بعض الصحابة وحفظهم الجيد فسمح لهم بالتحديث.

ويتجلى منهاج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى وصيته التى أوصى بها وفده إلى الكوفة فيما روى عن قرظة بن كعب أنه قال: «بعثنا عمر

(١) مسند الإمام أحمد ص ٤٥ ج ٢.

(٢) مختصر كتاب المؤمل فى الرد إلى الأمر الأول ص ٦.

(٣) تذكرة الحفاظ ص ٧ ج ١ وانظر فى هذا الكتاب أبا هريرة القسم الثانى فى دفع شبهات عنه، وقد اشتهرت الرواية عن أبى هريرة بأن عمر سمع له بالرواية عندما عرف خشية وورعه.

(٤) جامع بيان العلم وفضله ص ١٢١ ج ٢.

ابن الخطاب إلى الكوفة، وشيعنا إلى موضع قرب المدينة يقال له: صرار، قال: أتدرون لم مشيت معكم؟ قال: قلنا: لحق صحبة رسول الله ﷺ ولحق الأنصار. قال: لكنى مشيت معكم لحديث أردت أن أحدثكم به، فأردت أن تحفظوه لمشأى معكم: إنكم تقدمون على قوم للقرآن فى صدورهم هزيز كهزيز الرجل، فإذا رأوكم مدوا إليكم أعناقهم، وقالوا أصحاب محمد، فأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ، وأنا شريككم»^(١) وفى رواية: فلما قدم قرظة بن كعب قالوا: حدثنا، فقال: نهانا عمر رضى الله عنه^(٢).

وروى عن أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه أنه اتبع منهج الخليفة الراشد عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ومنع الإكثار من الرواية، قال محمود بن لبيد: سمعت عثمان على المنبر يقول: لا يحل لأحد يروى حديثاً عن رسول الله ﷺ لم أسمع به فى عهد أبى بكر ولا عهد عمر، فإنه لم يمتعنا أن نحدث عن رسول الله ﷺ أن لا أكون أوعى لأصحابه عنه، ألا إني سمعته يقول: «من قال على ما لم أقل فقد تبوأ مقعده من النار»^(٣).

وقد سبق لى أن بينت تطبيق الإمام على رضى الله عنه لمنهج الصحابة رضوان الله عليهم.

ويروى أن معاوية كان يقول: اتقوا الروايات عن رسول الله ﷺ إلا ما كان يذكر منها فى زمن عمر، فإن عمر كان يخوف الناس فى الله تعالى^(٤).

(١) سنن ابن ماجه ص ٩ ج ١ وطبقات ابن سعد ص ٢ ج ٦، والهزيز: الصوت. وقوله وأنا شريككم أى شريككم فى الإقلال أى أنصحكم بذلك وأعمل بنصيحتى لا كما ذهب إليه السندى من أنه شريك فى الأجر بسبب أنه الدال الباعث لهم على الخير. انظر: هامش ص ٩ ج ١ من سنن ابن ماجه، ذلك لأن المقام لا يحتمله.

(٢) تذكرة الحفاظ ص ٧ ج ١ وجامع بيان العلم ص ١٢ ج ٢ وشرف أصحاب الحديث ص ٩٧: أ، وانظر: سنن الدارمى ص ٨٥ ج ١، وسنن البيهقى ص ١٢ ج ١.

(٣) قبول الأختيار ص ٢٩. والحديث بإيجاز فى مسند الإمام أحمد ص ٣٦٣ ج ١ بإسناد صحيح.

(٤) رد الدارمى على بشر المرسى ص ١٣٥. وانظر: تذكرة الحفاظ ص ٧ ج ١.

تلكم طريقة الصحابة ومنهجهم في المحافظة على حديث رسول الله ﷺ، خشية الوقوع في الخطأ، أو تسرب الدس إلى الحديث الشريف من الجهلاء وأصحاب الأهواء، أو أن تحمل بعض الأحاديث على غير وجه الحق والصواب، فيكون الحكم بخلاف ما أخذ به. فعلوا ذلك كله احتياطاً للدين ورعاية لمصلحة المسلمين، لا زهداً في الحديث النبوي ولا تعطيلاً له. فلا يجوز لإنسان أن يفهم من منهج الصحابة ومن تشدد عمر خاصة - هجر الصحابة للسنة أو زهدهم فيها، معاذ الله أن يقول هذا إلا جاهل أو صاحب هوى، لا علم له بقليل من السنة، ولمخالط قلبه روح الصحابة، ولا أثار سبيله قيس من هداهم، فقد ثبت عن الصحابة جميعاً تمسكهم بالحديث الشريف وإجلالهم إياه، وأخذهم به، وقد تواتر خبر اجتهاد الصحابة إذا وقعت لهم حادثة شرعية من حلال أو حرام، وفزعهم إلى كتاب الله تعالى، فإن وجدوا فيه ما يريدون تمسكوا به، وأجروا (حكم الحادثة) على مقتضاه، وإن لم يجدوا ما يطلبون فزعوا إلى «السنة» فإن روى لهم خبر أخذوا به، ونزلوا على حكمه، وإن لم يجدوا الخبر فزعوا إلى الاجتهاد بالرأى^(١).

وطريقة أبي بكر وعمر في الحكم مشهورة: كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه حكم نظر في كتاب الله تعالى، فإن وجد فيه ما يقضى به قضى به، وإن لم يجد في كتاب الله نظر في سنة رسول الله ﷺ، فإن وجد فيها ما يقضى به قضى به، فإن أعياه ذلك سأل الناس: هل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى فيه بقضاء؟ فرمى قام إليه القوم فيقولون: قضى فيه بكذا وكذا، فإن لم يجد سنة سنّها النبي ﷺ جمع رؤساء الناس فاستشارهم^(٢). . . وكان عمر رضی الله عنه يفعل ذلك.

هكذا كان منهج الصحابة جميعاً في كل ما يرد عليهم، وليس لأحد بعد هذا أن يتخذ بعض ما ورد عن الصحابة ذريعة لهواه. ونستعرض موقف بعض علماء الحديث من ذلك.

(١) انظر: الملل والنحل للشهرستاني ص ٤٤٦، ٤٤٧.

(٢) إعلام الموقعين ص ٦٢ ج ١ عن كتاب القضاء لأبي عبيد.

١ - رأى ابن عبد البر:

قال: (احتج بعض من لا علم له ولا معرفة من أهل البدع وغيرهم، الطاعنين في السنن، بحديث عمر هذا قوله: «أقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ» . . وجعلوا ذلك ذريعة إلى الزهد في سنن رسول الله ﷺ، التي لا يوصل إلى مراد كتاب الله إلا بها، والظعن على أهلها ولا حجة في هذا الحديث، ولا دليل على شيء مما ذهبوا إليه من وجوه قد ذكرها أهل العلم، منها:

- أن وجه قول عمر إنما كان لقوم لم يكونوا أحصوا القرآن فخشى عليهم الاشتغال بغيره عنه، إذ هو الأصل لكل علم. هذا معنى قول أبي عبيد في ذلك.

- وقال غيره إن عمر نهى عن الحديث عما لا يفيد حكماً ولا يكون سنة.

- ووطن غيرهم في حديث قرظة هذا ورده، لأن الآثار الثابتة عن عمر خلافه، منها ما روى مالك ومعمر وغيرهما عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة، عن عمر بن الخطاب، في حديث السقيفة أنه خطب يوم الجمعة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنني أريد أن أقول مقالة قد قدر لي أن أقولها، من وعائها وعقلها وحفظها فليحدث بها حيث تنتهي به راحلته، ومن خشي أن لا يعيها فإنني لا أحل له أن يكذب على . . . (١) وهذا يدل على أن نهيه عن الإكثار، وأمره بالإقلال من الرواية عن رسول الله ﷺ إنما كان خوف الكذب على رسول الله ﷺ، وخوفاً من يكونوا - مع الإكثار - يحدثون بما لم يتقنوا حفظه، ولم يعوه، لأن ضبط من قلت روايته أكثر من ضبط المستكثر، وهو أبعد من السهو والغلط الذي لا يؤمن مع الإكثار، لهذا أمرهم عمر بالإقلال من الرواية، ولو كره الرواية، وذمها لنهى عن الإقلال منها والإكثار، ألا تراه يقول: فمن حفظها ووعاها فليحدث بها، فكيف يأمرهم بالحديث عن رسول الله ﷺ وبيناهم عنه؟ هذا لا يستقيم، بل كيف ينهاهم عن الحديث عن رسول الله ﷺ ويأمرهم بالإقلال منه، وهو يندبهم إلى الحديث عن نفسه، بقوله: من حفظ مقالتى ووعاها

(١) انظر هذا القول لعمر رضى الله عنه رواه الخطيب البغدادي عن ابن عباس في الكفاية ص ١٦٦ .

فليحدث بها حيث تنتهي به راحلته؟ ثم قال: ومن خشى أن لا يعيها فلا يكذب على، وهذا يوضح لك ما ذكرنا، والآثار الصحاح عنه من رواية أهل المدينة بخلاف حديث قرظة هذا، وإنما يدور على (بيان^(١)) عن (الشعبي) وليس مثله حجة في هذا الباب، لأنه يعارض السنن والكتاب.

قال الله عز وجل ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]... ومثل هذا في القرآن كثير، ولا سبيل إلى اتباعه^(٢) والتأسي به، والوقوف عند أمره، إلا بالخير عنه، فكيف يتوهم أحد على عمر أنه يأمر بخلاف ما أمر الله به. وقد قال رسول الله ﷺ: «نضر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها، ثم أداها إلى من لم يسمعها... الحديث»، وفيه الحض الوكيد على التبليغ عنه ﷺ، وقال: «خذوا عني في غير ما حدثت وبلغوا عني»، والكلام في هذا أوضح من النهار لأولى النهي والاعتبار. ولا يخلو الحديث عن رسول الله ﷺ من أن يكون خيراً أو شراً. فإن كان خيراً ولا شك في أنه خير فالاكثار من الخير أفضل، وإن كان شراً - فلا^(٣) يجوز أن يتوهم أن عمر يوصيهم بالإقلال من الشر^(٤). وهذا يدل على أنه إنما أمرهم بذلك خوف واقعة الكذب على رسول الله ﷺ، وخوف الاشتغال عن تدبر السنن والقرآن، لأن المكثراً لا تكاد تراه إلا غير متدبر ولا متفقه.

وذكر مسلم بن الحجاج في كتاب التمييز... عن قيس بن عباد قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: من سمع حديثاً فأداه كما سمع فقد سلم. ومما يدل على هذا ما ذكرناه فيما يروى عن عمر أنه كان يقول: تعلموا الفرائض والسنة كما

(١) هو بيان بن بشر الأحمى أبو بشر الكوفي كما في الخلاصة. وهو ثقة وطعن عبد البر في روايته هذه لأنه خالف من هو أوثق منه. وهذا لا يمنع صحتها، وأرى أن جميع ما ورد عن عمر غير متعارض كما أبينه بعد قليل وطعن ابن حزم في حديث قرظة أيضاً، وتناقش نهى عمر رضى الله عنه عن الإكثار من التحدث مناقشة طيبة قريبة من مناقشة ابن عبد البر انظر الأحكام ص ١٣٧ ج ٢ وما بعدها.

(٢) أى اتباع الرسول ﷺ.

(٣) فى الأصل (ولا) وقد تكون خطأ من الناسخ فأثبتناها (فلا) لأن الفاء رابطة لجواب (إن) الشرطية.

(٤) انظر: ما روى عن عمر رضى الله عنه فى الحرص على السنن إعلام الموقعين ص ٥٥ ج ١.

تتعلمون القرآن. فسوى بينهما، . . . وكتب عمر تعلموا السنة والفرائض واللحن كما تتعلمون القرآن. . . قالوا: اللحن معرفة وجوه الكلام وتصرفه والحجة به، وعمر هو الناشد للناس في غير موقف بل في مواقف شتى: من عنده علم عن رسول الله ﷺ في كذا، نحو ما ذكره مالك وغيره عنه في توريث المرأة من دية زوجها، وفي الجنين يسقط ميتا عند ضرب بطن أمه وغير ذلك. . . وكيف يتوهم على عمر ما توهمه الذين ذكرنا قولهم وهو القائل: «ياكم والرأى، فإن أصحاب الرأى أعداء السنن، أعييتهم الأحاديث أن يحفظوها». . . وعمر أيضا هو القائل خير الهدى هدى محمد ﷺ، وهو القائل سيأتى قوم يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله. . .

ويقول ابن عبد البر: «وقد يحتمل عندى أن تكون الآثار كلها عن عمر صحيحة متفقة، ويخرج معناها على أن من شك في شيء تركه، ومن حفظ شيئا وأتقنه جاز له أن يحدث به، وإن كان الإكثار يحمل الإنسان على التقحم في أن يحدث بكل ما سمع من جيد وردىء، وغث وسمين، وقد قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع» رواه مسلم. . . ولو كان مذهب عمر ما ذكرناه، لكانت الحجة في قول رسول الله ﷺ دون قوله، فهو القائل: «نضر الله عبدا سمع مقالتي فوعاها، ثم أداها وبلغها». . . وقال النبي ﷺ: «تسمعون ويسمع منكم»، رواه أبو داود والإمام أحمد والحاكم. اهـ^(١).

٢- رأى الخطيب البغدادي:

قال الخطيب: (إن قال قائل: ما وجه إنكار عمر على الصحابة روايتهم^(٢). عن رسول الله ﷺ، وتشديده عليهم في ذلك، قيل له: فعل ذلك عمر احتياطا للدين وحسن نظر للمسلمين، لأنه خاف أن ينكلوا عن الأعمال، ويتكلوا على ظاهر الأخبار، وليس حكم جميع الأحاديث على ظاهرها ولا كل من سمعها

(١) جامع بيان العلم وفضله ص ١٢١-١٢٤ ج ٢ باختصار.

(٢) لم ينكر عمر رضى الله عنه على الصحابة روايتهم عن رسول الله ﷺ، إنما أنكر الإكثار منها عند عدم الحاجة، ولا يكون إكثار إلا عند عدم الحاجة إلى الإكثار.

عرف فقهها، فقد يرد الحديث مجملاً ويستنبط معناه وتفسيره من غيره، فخشى عمر، أن يحمل حديث علي غير وجهه، أو يؤخذ بظاهر لفظه والحكم بخلاف ما أخذ، ونحو من هذا، الحديث الآخر... عن معاذ قال كنت ردف رسول الله ﷺ، على حمار له يقال له غفير فقال: «يا معاذ، أتدرى ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟ فقلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به، قلت أفلا أبشر الناس؟ قال: لا، فيتكلموا^(١)».

وأخبرنا الحسن بن أبي بكر، قال: قال لنا أبو علي الطوماري كنا عند أبي العباس أحمد بن يحيى تغلب، فقال له رجل: إيش معنى قول النبي ﷺ لعلى وقد أقبل أبو بكر وعمر فقال: «هذان سيدا كهول أهل الجنة^(٢)»، لا تخبرهما يا علي»، قال أشفق من التقصير في العمل. قال الشيخ أبو بكر الحافظ: وكذلك نهى عمر الصحابة أن يكثرُوا رواية الحديث، إشفافاً على الناس أن ينكلوا عن العمل إنكالا على الحديث.

وفي تشديد عمر أيضاً على الصحابة في رواياتهم - حفظ لحديث رسول الله ﷺ وترهيب لمن لم يكن من الصحابة أن يدخل في السنن ما ليس منها، لأنه إذا رأى الصحابي المقبول القول، المشهور بصحبة النبي ﷺ، قد تشدد عليه في روايته، كان هو أجدر أن يكون للرواية أهيب^(٣). وبهذا يسلم حديث رسول الله ﷺ، فلا يتطرق إليه الكذب، ولا يزداد عليه ما ليس منه.

وروى الخطيب عن عبد الله بن عامر اليحصبي، قال: (سمعت معاوية على المنبر بدمشق يقول: أيها الناس، إياكم وأحاديث رسول الله ﷺ إلا حديثاً كان

(١) ونحو هذا الحديث رواه البخارى في صحيحه عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ ومعاذا رديفه على الرجل قال: يا معاذ بن جبل الحديث وقال في آخر الحديث وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً. انظر: فتح الباري ص ٢٣٦ ج ١.

(٢) انظر: مستند الإمام أحمد ص ٣٧ حديث ٦٠٢ ج ٢ ذكر نحوه بإسناد صحيح وفيه زيادة (سيدا كهول أهل الجنة وشبابها بعد النبيين والمرسلين).

(٣) شرف أصحاب الحديث ص ٩٧، ٩٨: ب.

يذكر على عهد عمر رضى الله عنه، فإن عمر كان يخيف الناس فى الله عز وجل^(١). وإلى هذا المعنى الذى ذكرناه ذهب عمر فى طلبه من أبى موسى الأشعري أن يحضر معه رجل يشهد أنه سمع من رسول الله ﷺ حديث السلام، لكن فعله على الوجه الذى بيناه من الاحتياط، لحفظ السنن والترهيب فى الرواية والله أعلم. انتهى^(٢).

كما سبق يتبين لنا أن الصحابة جميعا كانوا يتثبتون فى الحديث، ويتأنون فى قبول الأخبار وأدائها، وكانوا لا يحدثون بشيء إلا وهم واثقون من صحة ما يروون، وقد حرصوا على المحافظة على الحديث بكل وسيلة تقضى إلى ذلك، فاتبعوا منهجا سليما يمنع الشوائب من أن تدخل السنة النبوية فتفسدها.

وقد حمل لواء هذه المحافظة والحرص على السنن جميع الصحابة، وتميز منهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وقد ظهر لنا مما روى عنه اهتمامه بالسنة النبوية وإجلاله للحديث الشريف. وإن الأخبار التى رويت عنه فى هذا الشأن ليسدعهم بعضها بعضا فى سبيل نشر العلم والحرص على سلامة السنة، ومن ثم ليس لأحد أن يرى تناقضا بين وصية عمر لأهل العلم والآثار الأخرى المروية عنه، فهو إذا طلب الإقلال من الرواية فلإنما يطلبه من باب الاحتياط لحفظ السنن والترهيب فى الرواية، وأما من كان يتقن ما يحدث به ويعرف فقهه وحكمه فلا يتناوله أمر عمر رضى الله عنه، فكل ما ورد عن أمير المؤمنين إنما يدل على المحافظة على السنة ونشرها وتبليغها صحيحة، ولا يتيسر نشرها صحيحة ما لم يتثبت حاملوها من مروياتهم، والإقلال من الرواية مظنة عدم الوقوع فى الخطأ، ولهذا أمر به رضى الله عنه. وهذا ما رآه ابن عبد البر والخطيب البغدادي وغيرهما من أئمة الحديث، وإليه أذهب، وبه أقول، فالصحابه لم يزهدوا فى السنة، بل كان لهم الفضل الأول فى المحافظة عليها.

(١) انظر: نحو هذا القول عن معاوية فى كتاب رد الدارمي على بشر المريسي ص ١٣٥، وتذكرة الحفاظ ص ٧ ج ١.

(٢) شرف أصحاب الحديث ص ٩٩: ١.

وقبل أن نختم هذا الفصل لا بد لنا من أن نتعرض لما روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من أنه حبس بعض الصحابة لأنهم أكثروا الرواية عن رسول الله عليه الصلاة والسلام! فتناول هذا الخبر من حيث صحته، ثم لو صح هذا الخبر فكيف كان ذلك الحبس؟

روى الحافظ الذهبي^(١) عن سعد بن إبراهيم عن أبيه أن عمر حبس ثلاثة: «ابن مسعود^(٢)، وأبا الدرداء^(٣)، وأبا مسعود الأنصاري^(٤)»، فقال: قد أكثرتم الحديث عن رسول الله ﷺ. «هؤلاء ثلاثة من جلة أصحاب الرسول ﷺ، وأتقاهم وأورعهم. هل يعقل من مثل عمر بن الخطاب أن يحبسهم؟ وهل يكفى لحبسهم أنهم أكثروا من الرواية؟»

إن المرء ليقف متسائلاً أمام هذا الخبر ويعتريه الشك فيه، ويتبادر إلى نفسه أن يتساءل عن الحد الذي يمكن أن يعرف به الإقلال والإكثار! وقد ناقش الإمام ابن حزم هذا ورده، وقال: «هذا مرسل ومشكوك فيه من (شعبة) فلا يصح، ولا يجوز الاحتجاج به، ثم هو في نفسه ظاهر الكذب والتوليد، لأنه لا يخلو عمر من أن يكون اتهم الصحابة، وفي هذا ما فيه، أو يكون نهى عن نفس الحديث، وعن تبليغ سنن رسول الله ﷺ إلى المسلمين، وألزمهم كتمانها وجحدها وأن لا يذكروها لأحد، فهذا خروج عن الإسلام، وقد أعاذ الله أمير المؤمنين من كل ذلك، ولئن كان سائر الصحابة متهمين بالكذب على النبي ﷺ، فما عمر إلا

(١) تذكرة الحفاظ ص ٧ ج ١، وفيه سعيد بن إبراهيم والصواب سعد، وهو حفيد عبد الرحمن بن عوف كما في تهذيب التهذيب، والمحدث الفاصل ص ١٣٣: أ، وانظر مجمع الزوائد ص ١٤٩ ج ١.

(٢) عبد الله بن مسعود الهذلي صحابي جليل من السابقين إلى الإسلام كان مخالفاً لرسول الله ﷺ وصاحب وساده وسواكه وتعليه، وجهه عمر رضى الله عنه إلى الكوفة - وامتن على أهلها به - ليفقههم في الدين ويعلمهم القرآن، وقد جمع القرآن في عهد الرسول ﷺ، وقراءته مشهورة توفي سنة ٣٢هـ في المدينة. انظر: بسط ترجمته في سير أعلام النبلاء ص ٣٣١-٣٥٧ ج ١.

(٣) أبو الدرداء عويمر بن مالك بن قيس صحابي أنصاري خزرجي كان حكيماً، ولى القضاء لمعاوية في دمشق بأمر عمر بن الخطاب، وهو أحد من حفظ القرآن في عهد رسول الله ﷺ وتوفي في الشام سنة ٣٢، انظر: تاريخ الإسلام للذهبي ص ١٠٧ ج ٢.

(٤) أبو مسعود الأنصاري هو عقبة بن عمرو بن ثعلبة الأنصاري البدرى كان أصغر من شهد العقبة مع الأنصار، توفي في الكوفة سنة ٣٩ أو ٤٠، انظر: خلاصة الخزرجي، وتقريب التهذيب ص ٢٧ ج ٢.

واحد منهم، وهذا قول لا يقوله مسلم أصلاً، ولئن كان حبسهم وهم غير متهمين لقد ظلمهم، فليختر المحتج لمذهبه الفاسد بمثل هذه الروايات الملعونة أى الطريقتين الخبيثتين شاء، ولا بد له من أحدهما...».

ثم قال: «وقد حدث عمر بحديث كثير، فإنه قد روى خمسمائة حديث ونيفا على قرب موته من موت النبي ﷺ، فهو كثير الرواية، وليس فى الصحابة أكثر رواية منه إلا بضعة عشر منهم^(١)».

ولو سلمنا جدلاً بصحة الرواية فهناك خلاف فى المحبوسين، فالذهبي يذكر ابن مسعود، وأبا الدرداء، وأبا مسعود الأنصارى، بينما يذكر ابن حزم - ابن مسعود، وأبا الدرداء، وأبا ذر، فهل تكرر الحبس من عمر؟ ولو تكرر لاشتهر ثم إن حادثة كهذه سيطير خبرها فى الآفاق من غير أن تحتل الشك فى المحبوسين، لأنهم من أعيان الصحابة، ولو سلمنا أن العبرة فى الحادثة نفسها من حيث حبسه بعض الصحابة، دون نظر إلى أعيانهم وأشخاصهم، لأنهم أكثروا الرواية، قلنا: قد كان غير هؤلاء أكثر منهم حديثاً، ولم يردنا خبر عن حبسهم، فلا يعقل أن يحبس أمير المؤمنين بعضاً دون بعض فى قضية واحدة، هم فيها سواء، وهى الإكثار من الحديث، معاذ الله أن يفعل هذا عمر رضى الله عنه، فيحبس هؤلاء ويترك أبا هريرة مثلاً وهو أكثر حديثاً منهم. فقد روى عن أبي هريرة (٥٣٧٤) خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعون حديثاً وعن ابن مسعود (٨٤٨) ثمانمائة وثمانية وأربعون حديثاً، وعن أبي الدرداء (١٧٩) مائة وتسعة وسبعون حديثاً، وعن أبي ذر (٢٨١) مائتان وواحد وثمانون حديثاً^(٢).

فإن قيل إن أبا هريرة لم يكثر من الرواية فى عهد عمر رضى الله عنه لأنه خشيه. فنقول لمَ لم يخشه هؤلاء؟ بل إن عمر نفسه سمح لأبى هريرة أن يروى عن رسول الله ﷺ، عندما عرف ورعه وخشيته من الله عز وجل، روى الذهبى

(١) الإحكام لابن حزم ص ١٣٩ ج ٢ وما بعدها.

(٢) ذكر ذلك الإمام الحافظ بقى بن مخلد فى مستنده، انظر: البارع الفصيح فى شرح الجامع الصحيح لأبى البقاء الاحمدى الشافعى مخطوطة دار الكتب المصرية ص ٩-١٣: ب.

عن أبي هريرة قال: «بلغ عمر حديثي فأرسل إليّ، فقال: كنت معنا يوم كنا مع رسول الله ﷺ في بيت فلان؟ قلت: نعم، وقد علمت لأي شيء سألتني. قال: ولم سألتك؟ قلت: إن رسول الله ﷺ، قال يومئذ: «من كذب على متعمدا، فليتبوأ مقعده من النار». قال: أما لا، فاذهب فحدث^(١).» فهل يتصور إنسان أن يحبس عمر ابن مسعود وأبا الدرداء وأبا ذر أو أبا مسعود الأنصاري وقد عرف حفظهم وورعهم؟ بل إن أمير المؤمنين امتن على أهل العراق كما أسلفنا عندما أرسل إليهم عبد الله بن مسعود فكتب إلى أهل الكوفة؟ «إني والله الذي لا إله إلا هو آثرتكم به على نفسي فخذوا منه^(٢)» وذكر عمر ابن مسعود فقال: كنيف ملئ علمًا، آثرت به أهل القادسية^(٣) كيف يأمر الناس بالأخذ منه، ويشهد له بالعلم، ثم يحبسه!!؟

وما ورد على حبس ابن مسعود يرد على حبس الصحابة الباقين، ففيهم أبو الدرداء إمام الشام وقاضيها ومعلمها القرآن..

وبهذا البيان، لا يرقى إلى الصحة خبر حبس عمر للصحابة رضى الله عنهم، لأنهم أكثروا من الرواية عن رسول الله ﷺ، بل إنه يروى عن ابن مسعود أنه نهى عن الإكثار من الرواية، فهل يتصور منه أن ينهى عن شيء وهو يفعله؟ وقد روى عنه قوله: «ليس العلم بكثرة الحديث، ولكن العلم الخشية^(٤)».

وفى رواية سعد بن إبراهيم عن أبيه، التي ذكرها الخطيب، ما يدل على أنه استبقاهم في المدينة حتى عرف لفظهم سواء. وهذه هي رواية الخطيب.

قال: بعث عمر بن الخطاب إلى عبد الله بن مسعود وإلى أبي الدرداء، وإلى أبي مسعود الأنصاري فقال: ما هذا الحديث الذي تكثرون عن رسول الله ﷺ؟ فحبسهم بالمدينة حتى استشهد لفظهم سواء^(٥). فيكون هذا من باب تثبت عمر

(١) سير أعلام النبلاء ص ٤٣٤ ج ٢.

(٢) و (٣) سير أعلام النبلاء ص ٣٥١ ج ١، والكنيف: الوعاء.

(٤) مختصر كتاب المؤمل في الرد إلى الأمر الأول ص ٦.

(٥) شرف أصحاب الحديث ص ٩٧: أ.

رضى الله عنه في الحديث، وهذه الرواية تثبت أنه لم يزوج بهم في السجن، بل استبقاهم في المدينة ريثما يتثبت من لفظهم، فإن صح هذا فلا ضير عليهم.

ومما يؤكد لنا أنه لم يحبس أحدا - وهو ما استنبطناه من مناقشة الروايات السابقة - ما يرويه الرامهرمزي عن شيخه ابن البرى من طريق سعد بن إبراهيم عن أبيه: (أن عمر بن الخطاب حبس بعض أصحاب النبي ﷺ، فيهم ابن مسعود وأبو الدرداء فقال: قد أكثرتم الحديث عن رسول الله ﷺ، قال أبو عبد الله ابن البرى: يعنى منعهم الحديث ولم يكن لعمر حبس^(١)) فقد فسر ابن البرى الخبر تفسيراً جيداً وإن جاء مقتضياً، فهو يريد أنه منعهم كثرة الحديث، خوفاً من أن لا يتدبر السامعون كلام رسول الله عليه الصلاة والسلام إذا كثر عليهم.

كل ما سبق ينفي صحة ما ورد من أخبار حول حبس عمر رضى الله عنه للصحابة لأنهم أكثروا الحديث عن رسول الله ﷺ.

وفي عهد التابعين ازداد النشاط العلمى لانتشار الصحابة فى الأمصار، ثم ما لبث التابعون أن تصدروا للرواية، ومع هذا سلكوا سبيل الصحابة، وساروا على نهجهم، فكانوا على جانب عظيم من الورع والتقوى، وليس بعيداً ما نقول، لأنهم تخرجوا فى مدارس الصحابة تلامذة رسول الله عليه الصلاة والسلام، فنسمع الشعبى - وهو أحد كبار التابعين الحفاظ الثقات - يقول: ليتنى أنفقت من علمى كفافاً لا لى ولا على^(٢). وكأنه يشعر بأنه أكثر من التحديث فيقول: «كره الصالحون الأولون الإكثار من الحديث، ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما حدثت إلا بما أجمع عليه أهل الحديث^(٣)». وكان شعبة بن الحجاج يقول: التدليس فى الحديث أشد من الزنا، ولأن أسقط من السماء إلى الأرض أحب إلى من أن أدلس^(٤). وفى رواية عنه أنه كان يقول: لأن أقع من فوق هذا القصر

(١) المحدث الفاضل ص ١٣٣: أ.

(٢) جامع بيان العلم ص ١٣٠ ج ٢ ويروى نحوه عن سفيان الثورى انظر: الكامل ص ٥: ب. ج ٣ فى المجلد الأول فى دار الكتب المصرية تحت رقم (٩٥) مصطلح الحديث. وجامع بيان العلم وفضله ص ١٢٩ ج ٢.

(٣) تذكرة الحفاظ ص ٧٧ ج ١.

(٤) مقدمة التمهيد ص ٥: ب.

- لدار حيهاله^(١) - على رأسى أحب إلى من أن أقول لكم: قال فلان، لرجل ترونه، أنى قد سمعت ذلك منه ولم أسمع^(٢).

ومنهم من كان يقتصد فى رواية الحديث على طلابه ليفهموا ما يحدثهم به ويعقلوه ويتدبروه، ومن هذا ما رواه خالد الحذاء قال: كنا نأتى أبا قلابه، فإذا حدثنا بثلاثة أحاديث قال: قد أكثر^(٣)، ويؤكد هذا ما قاله ابن عبد البر: «إنما عابوا الإكثار خوفا من أن يرتفع التدبر والتفهم، ألا ترى إلى ما حكاه بشر ابن الوليد عن أبى يوسف قال: «سألنى الأعمش عن مسألة وأنا وهو لا غير فأجبتة، فقال لى: من أين قلت هذا يا يعقوب؟ فقلت: بالحديث الذى حدثتني أنت، ثم حدثته، فقال لى: يا يعقوب، إنى لأحفظ هذا الحديث من قبل أن يجمع أبواك^(٤) ما عرفت تأويله إلى الآن^(٥)» وروى نحو هذا: أنه جرى بين الأعمش وأبى يوسف وأبى حنيفة، فكان من قول الأعمش: «أنتم الأطباء ونحن الصيادلة^(٦)».

(١) هكذا النص والمعنى لدار قريبة منه.

(٢) مقدمة الجرح والتعديل ص ١٧٤، ويروى نحوه عن مطرف بن طريف انظر: نفس المصدر ص ٤٢.

(٣) انظر: المحدث الفاصل ص ١٤٥، ١٤٦.

(٤) أى: من قبل أن يخلق، كناية عن أنه حفظه منذ زمن بعيد.

(٥) هكذا النص والأصواب أن تكون إلا.

(٦) جامع بيان العلم وفضله: ص ١٣٠ ج ٢.

تثبت الصحابة والتابعين فى قبول الحديث

وكما احتاط الصحابة والتابعون فى التحديث، احتاطوا وثبتوا فى قبول الأخبار عن رسول الله ﷺ وسنعرض هذا فيما يلى:

أ- تثبت أبى بكر الصديق فى قبول الأخبار:

كان أبو بكر رضى الله عنه قدوة حسنة للمسلمين فى المحافظة على السنة، والتثبت فى قبول الأخبار خشية أن يقع ويقع المسلمون فى خطأ يؤدى بهم إلى ما لا تحمد عقباه. وسأورد بعض الأخبار التى تبين لنا طريق الصحابة ومنهجهم فى ذلك.

١- قال الحافظ الذهبي: كان أبو بكر رضى الله عنه، أول من احتاط فى قبول الأخبار، فروى ابن شهاب عن قيصة بن ذؤيب أن الجدة جاءت إلى أبى بكر تلتمس أن تورث، فقال: ما أجد لك فى كتاب الله شيئاً، وما علمت أن رسول الله ﷺ ذكر لك شيئاً، ثم سأل الناس فقام المغيرة فقال: سمعت رسول الله ﷺ يعطيها السدس، فقال له: هل معك أحد فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك فأنفذه لها أبو بكر رضى الله عنه^(١).

٢- عن يونس «بن يزيد»^(٢) عن الزهرى أن أبا بكر حدث رجلاً حديثاً فاستفهمه الرجل إياه، فقال أبو بكر هو كما حدثتك: أى أرض تقلنى إذا أنا قلت ما لم أعلم!!

وصح أن الصديق خطبهم فقال: (ياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، والفجور يهدى إلى النار)^(٣). فأبو بكر يبين للناس جميعاً أنه لا يحدث

(١) تذكرة الحفاظ ص ٣ ج ١ ومعرفة علوم الحديث ص ١٥، والكفاية ص ٢٦، وقد أخرجه الإمام مالك فى الموطأ ص ٥١٣ ج ٢، كما أخرجه أبو داود والترمذى وابن ماجه.

(٢) يونس بن يزيد بن أبى الجاد سمع من الزهرى انظر: ص ١٥٣ ج ١ من تذكرة الحفاظ.

(٣) تذكرة الحفاظ ص ٤ ج ١، وفى مقدمة التمهيد ص ١١ قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: إياكم والكذب فإنه مجانب الإيمان.

إلا بما يعلم ويثق منه، ثم إنه لم يكن بالحليطة لنفسه، بل أمر الناس بذلك أيضاً، وحثهم على التثبت فيما يحدثون به أو يسمعون، ومن ذلك ما رواه الذهبي من مراسيل ابن أبي مليكة: (أن الصديق جمع الناس بعد وفاة نبيهم فقال: إنكم تحدثون عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشد اختلافاً، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلوا حلاله وحرّموا حرامه). ثم قال الحافظ الذهبي: (يدلك (هذا) أن مراد الصديق التثبت في الأخبار والتحري، لا سد باب الرواية، ألا تراه لما نزل به أمر الجدة ولم يجده في الكتاب كيف سأل عنه في السنن، فلما أخبره ما اكتفى حتى استظهر بثقة آخر، ولم يقل حسبنا كتاب الله كما تقوله الخوارج)^(١).

ب - تثبت عمر بن الخطاب في قبول الأخبار:

١- روى الإمام البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: «كنت في مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور، فقال: استأذنت على عمر ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت فقال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت، وقال رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع».

فقال: والله لتقيم عليه بيئته^(٢)، أمنكم أحد سمعه من النبي ﷺ؟ فقال أبي ابن كعب: والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم، فكنت أصغر القوم، فقامت معه، فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذلك^(٣) فقال عمر لأبي موسى: أما إنني لم أتهمك، ولكن خشيت أن يتقول الناس على رسول الله ﷺ^(٤).

٢- روى مسلم عن المسور بن مخرمة قال: استشار عمر بن الخطاب الناس في ملاءص المرأة^(٥)، فقال المغيرة بن شعبة: شهدت النبي ﷺ قضى فيه

(١) تذكرة الحفاظ ص ٣، ٤ ج ١.

(٢) وفي رواية مسلم: فقال عمر: أقم عليه البيئته، وإلا أوجعتك.

(٣) صحيح البخاري بحاشية السندي ص ٨٨ ج ٤، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه ص ١٦٩٤ ج ٣. كما أخرجه الإمام مالك في الموطأ ص ٩٦٤ ج ٢، وانظر: موجزاً في الرسالة للإمام الشافعي ص ٤٣٥.

(٤) موطأ الإمام مالك ص ٩٦٤ ج ٢ والرسالة ص ٤٣٥.

(٥) ملاءص: هو جنين المرأة، والمعروف في اللغة إملاص المرأة. يقال أملصت به إذا وضعت قبل أوانه.

انظر: هامش ص ١٣١١ ج ٣ من صحيح مسلم.

بغرة^(١): عبد أو أمة. قال: فقال عمر اثنتي بمن يشهد معك. قال: فشهد له محمد بن مسلمة^(٢).

٣- روى صفوان بن عيسى: أخبرنا محمد بن عمار عن عبد الله بن أبي بكر قال: كان للعباس بيت في قبلة المسجد، فضاق المسجد على الناس فطلب إليه عمر البيع فذكر الحديث^(٣) وفيه فقال عمر لأبي لتأتيني على ما تقول بيينة، فخرجا فإذا ناس من الأنصار قال: فذكرهم، قالوا: قد سمعنا هذا^(٤) من رسول الله ﷺ، فقال عمر: أما إنني لم أتهمك، ولكني أحببت أن أثبت^(٥).

(١) الغرة بضم الغين وراء مشددة مفتوحة: العبد والأمة، فكأنه عبر في الحديث عن الجسم كله. كقوله رقية، وأصل الغرة بياض في جبهة الفرس، وغرة كل شيء أوله وأكرمه. انظر: هامش ص ١٣١ ج ٣ من صحيح مسلم، ولسان العرب مادة (غرر).

(٢) صحيح مسلم ص ١٣١ ج ٣.

(٣) وفيه كما رواه ابن سعد عن سالم أبي النضر أن عمر قال له: اختر مني إحدى ثلاث: إما أن تبعينها بما شئت من بيت مال المسلمين، وإما أن أخطئك حيث شئت من المدينة وأبنيها لك من بيت مال المسلمين، وإما أن تصدق بها على المسلمين فنوسع بها في مسجدهم، فقال: لا ولا واحدة منها، فقال عمر: بيني وبينك من شئت، فقال: أبي بن كعب. فانطلقا إلى أبي، فقصا عليه القصة، فقال أبي: إن شئتما حدثكما بحديث سمعته من النبي ﷺ، فقال: حدثنا. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله أوحى إلى داود أن ابن لى بيتاً أذكر فيه، فخط له هذه الخطة خطة بيت المقدس، فإذا تربيعها بيت رجل من بني إسرائيل، فسأله داود أن يبعمه إياه، فأبى فحدث داود نفسه أن يأخذه منه فأوحى الله إليه أن يا داود أمرتك أن تبني لى بيتاً أذكر فيه، فأردت أن تدخل في بيتي الغصب، وليس من شأنى الغصب، وإن عقوبتك أن لا تبنيه. قال: يا رب فمن ولدى. قال: من ولدك». قال: فأخذ عمر بمجامع ثياب أبي بن كعب وقال: جنتك بشىء فجنت بما هو أشد منه، لتخرجن مما قلت. فجاء يقوده حتى أدخله المسجد فأوقفه على حلقة من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم أبو ذر، فقال: إني نشدت الله رجلاً سمع رسول الله ﷺ يذكر حديث بيت المقدس حين أمر الله داود أن يبنيه إلا ذكره، فقال أبو ذر: أنا سمعته من رسول الله ﷺ وقال آخر: أنه سمعته، وقال آخر: أنا سمعته يعنى من الرسول ﷺ. قال: فأرسل عمر أياً، قال: وأقبل أبي على عمر فقال: يا عمر أنتهمنى على حديث رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: يا أبا المنذر، لا والله ما اتهمتك عليه، ولكنى كرهت أن يكون الحديث عن رسول الله ﷺ ظاهراً، وقال عمر للعباس: اذهب فلا أعرض لك فى دارك، فقال العباس: أما إذا فعلت هذا، فإننى قد تصدقت بها على المسلمين أوسع بها عليهم فى مسجدهم، فأما وأنت تخاصمنى فلا، فخط عمر لهم دارهم التى هى لهم اليوم، وبنها من بيت مال المسلمين.

انظر: طبقات ابن سعد ص ١٣، ١٤ قسم ١ ج ٤ و ص ٢٠٣ قسم ١ ج ٣.

(٤) أى حديث بناء بيت المقدس الذى ذكره أبى بن كعب.

(٥) تذكرة الحفاظ ص ٨ ج ١ وانظر: طبقات ابن سعد ص ١٣، ١٤ قسم ١ ج ٤.

٤- عن مالك بن أوس قال: سمعت عمر يقول لعبد الرحمن بن عوف وطلحة والزبير وسعد: نشدتكم بالله الذى تقوم السماء والأرض به أعلمتم أن رسول الله ﷺ قال: «إنا لا نُورثُ ما تركنا صدقة»؟ قالوا: اللهم نعم^(١).

ج - تثبت عثمان رضى الله عنه فى الحديث:

عن بسر بن سعيد قال: أتى عثمان المقاعد، فدعا بوضوء، فتمضمض واستنشق ثم غسل وجهه ثلاثاً، وبديه ثلاثاً ثلاثاً، ثم مسح برأسه، ورجليه ثلاثاً ثلاثاً، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ هكذا يتوضأ، يا هؤلاء أكذلك؟ قالوا: نعم، لنفر من أصحاب رسول الله ﷺ عنده^(٢).

د - تثبت على بن أبى طالب رضى الله عنه فى الحديث:

عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعتى الله بما شاء منه. وإذا حدثنى غيره استحلفتة، فإذا حلف لى صدقته، وإن أباً بكر حدثنى، وصدق أبو بكر، أنه سمع النبى عليه الصلاة والسلام قال: «ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الوضوء، ويصلى ركعتين فيستغفر الله عز وجل إلا غفر له»^(٣).

تلك آثار تبين منهج الصحابة فى التثبت والتأكد من الأخبار، وهذا لا يغنى أبداً أن الصحابة اشتروا لقبول الحديث، أن يرويه راويان فأكثر، أو أن يشهد الناس على الراوى أو أن يستحلف، فإذا لم يحصل شيء من هذا رد خبره!! بل كان الصحابة يشتبون فى قبول الأخبار، ويتبعون الطريقة التى ترتاح إليها ضمائرهم، فأحياناً يطلب عمر سماع آخر، وأحياناً يقبل الخبر من غير ذلك، ولا يقصد من وراء عمله إلا حمل المسلمين على جادة التثبت العلمى والتحفظ فى دين الله حتى

(١) مسند الإمام أحمد ص ٢٢٨ و ص ١٨٦، ١٨٧ ج١ بإسناد صحيح.

(٢) مسند الإمام أحمد ص ٢٧٢ ج١ بإسناد صحيح.

(٣) المرجع السابق ص ١٥٤ و ١٧٤ و ١٧٨ ج١ ونحوه فى الكفاية ص ٢٨، وانظر: تذكرة الحفاظ ص ١٠ ج١ ومقدمة معرفة علوم الحديث، ورواه مسلم.

لا يتقول أحد على الرسول ﷺ ما لم يقل، ويتضح هذا في قول عمر رضى الله عنه عندما رجع أبو موسى الأشعري مع أبي سعيد الخدرى وشهد له، قال عمر: «أما إني، لم أتهمك، ولكنى خشيت أن يتقول الناس على رسول الله ﷺ»^(١). ويظهر ذلك أيضاً من قول الذهبي بعد أن روى قصة أبي موسى: «أحب عمر أن يتأكد عنده خبر أبي موسى بقول صاحب آخر ففى هذا دليل على أن الخبر إذا رواه ثقتان كان أقوى وأرجح مما انفرد به واحد، وفى ذلك حى على تكثير طرق الحديث لى يرتقى عن درجة الظن إلى درجة العلم، إذ الواحد يجوز عليه النسيان والوهم، ولا يكاد يجوز ذلك على ثقتين لم يخالفهما أحد»^(٢).

وكذلك ما قاله بعد إيراد طريقة الصديق فى الثبوت: «إن مراد الصديق الثبوت فى الأخبار والتحرى، لا سد باب الرواية»^(٣).

وكما طلب الصحابة من الراوى شهادة غيره أيضاً، قبلوا أحاديث كثيرة برواية الأحاد وبنوا عليها أحكامهم.

ومن الغريب أن يجعل بعض المتطرفين فى الإسلام عمل الصحابة هذا دستوراً فى قبول الأخبار ولا يجعلون قبول الصحابة خير الأحاد دستوراً لهم أيضاً بل يردونه ولا يقبلونه، وقد حكى ذلك الحافظ أبو بكر محمد بن أبى عثمان الخازمى^(٤) عن بعض متأخري المعتزلة، كما حكى عن بعض أصحاب الحديث، قال شيخ الإسلام (ابن حجر): «وقد فهم بعضهم ذلك من خلال كلام الحاكم فى (علوم الحديث)، وفى (المدخل)... وأعجب من ذلك ما ذكره أبو حفص عمر بن عبد المجيد المياحى^(٥) فى كتاب «ما لا يسع المحدث جهله» «شرطُ الشيخين فى صحيحهما أن لا يدخلوا فيه»^(٦) إلا ما صح عندهما، وذلك ما رواه عن النبى ﷺ اثنان فصاعداً،

(١) موطأ مالك ص ٩٦٤ ج ٢ والرسالة ص ٤٣٥ وتوجيه النظر ص ١٦.

(٢) تذكرة الحفاظ ص ٦، ٧ ج ١.

(٣) المرجع السابق ص ٤ ج ١.

(٤) المتوفى سنة (٥٥٨٠هـ).

(٥) المتوفى سنة (٥٥٨٤هـ).

(٦) هكذا فى التدريب والأصوب أن يقول «فيهما».

وما نقله عن كل واحد من الصحابة أربعة من التابعين فأكثر. وأن يكون^(١) عن كل واحد من التابعين أكثر من أربعة» انتهى.

قال شيخ الإسلام: «وهو كلام من لم يمارس الصحيحين أدنى ممارسة، فلو قال قائل ليس في الكتابين (البخارى ومسلم) حديث واحد بهذه الصفة لما أبعده، وقال ابن العربى فى شرح الموطأ: كان مذهب الشيخين: (البخارى ومسلم) أن الحديث لا يثبت حتى يرويه اثنان، قال: وهو مذهب باطل، بل رواية الواحد عن الواحد صحيحة إلى النبي ﷺ»^(٢).

ويقول الدكتور السباعى: «وانتقل هذه الفهم - (أن لا يقبل الصحابة إلا ما رواه اثنان) - إلى كثير ممن كتب فى تاريخ التشريع الإسلامى وتاريخ السنة فى العصر الحديث، فأصبح عندهم قضية مسلمة لا يذكرون غيرها، وممن ذهب إلى هذا أساتذتنا الأجلاء مؤلفو مذكرة تاريخ التشريع الإسلامى فى كلية الشريعة بالأزهر فقد ذكروا فى باب شروط الأئمة للعمل بالحديث أن هذا كان شرط أبى بكر، وعمر، وعلى، للعمل بالحديث»^(٣).

إن ثبت الصحابة فى بعض الأحاديث بطلب راويين للخبر لم يكن شرطاً لقبول جميع المرويّات، بل قبلوا أخباراً كثيرة عن مخبر واحد، وعملوا بها فى مواضع كثيرة، مما يدل على أنهم رضى الله عنهم كانوا يطلبون الراوى الثانى لمجرد التثبيت والتأكد، لا لأن الخبر لا يثبت عندهم إلا براويين، والأخبار التى قبلها الخلفاء الأربعة وغيرهم برواية آحاد أكثر بكثير من الأخبار التى طلبوا فيها راويين، وإليك بعض تلك الآثار:

(١) هكذا فى التدريب، والأصوب أن يقول: «وكان رواه».

(٢) تدريب الراوى ص ٢٧. وقد قال باشرط راويين عن رجلين فى شرط القبول إبراهيم بن إسماعيل ابن عطية (وهو إسماعيل بن مقسم الأسدى حافظ من الطبقة الثامنة نسب إلى أمه، وهو ثقة كما فى التقريب) توفى سنة ١٩٣هـ وهو من الفقهاء الحديثين، إلا أنه مهجور القول عند الأئمة لميله إلى الاعتزال، وقد كان الشافعى يرد عليه ويحذر منه. انظر: تدريب الراوى ص ٢٨.

(٣) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى ص ٨١، ذكر الأساتذة مؤلفو تاريخ التشريع الإسلامى بالحرف الواحد «أما الآحاد فلمقام الشبهة فى ثبوته اختلف طرق الصحابة فى الأخذ به، فلم يكن أبو بكر ولا عمر يقبلان من الأحاديث إلا ما شهد اثنان أنهما سمعا من رسول الله ﷺ» انظر: الصفحة ٩٣ من تاريخ التشريع الإسلامى للسبكي وزملائه وهذا التعميم غير مطابق للواقع كما سترى.

١- عن سعيد بن المسيب: «أن عمر بن الخطاب كان يقول: الدية للعاقلة، ولا تترث المرأة من دية زوجها شيئاً. حتى أخبره الضحاك بن سفيان أن رسول الله كتب إليه: أن يورث امرأة أشيم الضبابي من ديته، فرجع إليه عمر»^(١).

٢- عن طاوس: «أن عمر قال: أذكرُ الله امرأ سمع من النبي في الجنين شيئاً؟ فقام حملُ بن مالك بن النابغة، فقال: كنت بين جاريتين لي، يعنى ضربتين، فضربت إحدهما الأخرى بمسطح^(٢)، فألقت جنيناً ميتاً، ف قضى فيه رسول الله بغرة، فقال عمر: لو لم أسمع فيه لقضينا بغيره»^(٣).

٣- «عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام. حتى إذا كان يسرع لقيه أهل الأجناد^(٤) أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام»^(٥).

واستشار المهاجرين والأنصار ومشيشة قريش من مهاجرة الفتح، واختلفت آراؤهم حتى جاءه عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيّباً في بعض حاجته، فقال: «إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا فراراً منه»^(٦) فرجع عمر رضى الله عنه لخبر عبد الرحمن رضى الله عنهم جميعاً.

٤- روى الإمام الشافعي عن الإمام مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه (على زين العابدين): أن عمر ذكر المجوس فقال: ما أدري كيف أصنع في أمرهم؟ فقال

(١) الرسالة ص ٤٢٦، الفقرة ١١٧٢.

(٢) المسطح: عود من أعواد الخبء والفسطاط.

(٣) الفقرة: العبد أو الأمة. الرسالة ص ٤٢٦، ٤٢٧، الفقرة ١١٧٤.

(٤) سرغ هي قرية في طرف الشام مما يلي الحجاز. والأجناد: المراد بها هنا مدن الشام الخمسة، وهي فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقرنين. قال الإمام النووي: هكذا فسروه وانفقوا عليه، ومعلوم أن فلسطين اسم لناحية بيت المقدس، والأردن اسم لناحية بيسان وطبرية وما يتعلق بهما، ولا يضر: إطلاق اسم المدينة عليه. انظر: هامش الصفحة ١٧٤٠ في جزء من صحيح مسلم.

(٥) صحيح الإمام مسلم ص ١٧٤٠ جزء ولخص الخبر الإمام الشافعي في رسالته ص ٤٢٩ فقرة ١١٨٠، وانظر: الأحكام لابن حزم ص ١٣ جزء.

(٦) صحيح الإمام مسلم ص ١٧٤٠ جزء.

له عبد الرحمن بن عوف: أشهد لسمعت رسول الله يقول: «ستوا بهم سنة أهل الكتاب»^(١).

٥- وقيل عمر بن الخطاب خبر سعد بن أبي وقاص في المسح على الخفين وأمر ابنه عبد الله ألا يتكر عليه وقال له: (إذا حدثك سعد بشيء فلا ترد عليه، فإن رسول الله ﷺ كان يمسخ على الخفين)^(٢).

وفي رواية (إذا حدثك سعد عن رسول الله ﷺ شيئاً فلا تسأل عنه غيره)^(٣). وهذا دليل واضح على قبول خبر الآحاد، حتى إن عمر ينهى ابنه عن أن يسأل غير سعد إذا حدثه سعد عن رسول الله. ولو كان شرط عمر عدم قبول الخبر إلا عن راويين لأمر ابنه أن يطلب مع سعد راوياً آخر، ولم ينهه عن سؤال غيره.

٦- وأراد رجم مجنونة حتى أعلم بقول رسول الله ﷺ: «رفع القلم عن ثلاث»^(٤)، فأمر ألا ترجم.

وأمر برجم مولاة حاطب، حتى ذكره عثمان بأن الجاهل لا حد عليه، فأمسك عن رجمها^(٥).

٧- وكان يفاضل بين ديات الأصابع حتى بلغه عن النبي ﷺ أمره بالمساواة بينها، فترك قوله وأخذ بالمساواة^(٦).

(١) الرسالة: ٤٣٠ فقرة ١١٨٢ وانظر: الكفاية في علم الرواية ص ٢٧ والإحكام ص ١٣ ج ٢.

(٢) مسند الإمام أحمد ص ١٩١ حديث ٨٧ ج ١ وفي ص ١٩٢ مختصراً وكلاهما بإسناد صحيح.

(٣) مسند الإمام أحمد ص ١٩٢ حديث ٨٨ ج ١ بإسناد صحيح.

(٤) أخرج الإمام أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم عن السيدة عائشة عن رسول الله ﷺ «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ وعن المستلى حتى يبرأ وعن الصبي حتى يكبر» الجامع الصغير ص ٢٣ ج ٢ بإسناد صحيح. وأخرج الإمام أحمد وأبو داود والحاكم عن عمر وعلى رضي الله عنهما عن الرسول ﷺ «رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم». المرجع نفسه.

(٥) الإحكام لابن حزم ص ١٣ ج ٢.

(٦) الإحكام لابن حزم ص ١٣ ج ٢ وانظر: الرسالة ص ٤٢٢ فقرة ١١٦٠، إلا أن الشافعي ينص على أن الصحابة بعد وفاة عمر رضي الله عنه وجدوا كتاب آل عمرو بن حزم وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «وفي كل أصبع مما هنالك عشر من الإبل» فصاروا إليه. انظر: الفقرة (١١٦٢) من الصفحة ٤٢٢.

٨- وقد اشتهر خبر تناوب عمر رضى الله عنه وجاره فى حضور حلقات الرسول ﷺ، وفيه يقول عمر: (ينزل يوماً، وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك)^(١) وهذا إقرار من أمير المؤمنين رضى الله عنه بقبول خبر جاره، ولا فرق بين جاره وغيره ممن تقبل روايته.

وهكذا نرى من تلك الأخبار وغيرها أن عمر رضى الله عنه لم يشترط لقبول الأخبار راويين، وما صدر منه مع أبى موسى رضى الله عنه بين سببه بنفسه كما سبق أن ذكرت ذلك، وكان من باب الاحتياط والتثبت، لا من باب عدم قبول الخبر إلا من راويين.

ومثل هذا يقال فى بقية الأخبار التى طلب فيها راويين.

وأما ما ذكر عن موقف أبى بكر رضى الله عنه، وتثبته فى قبول الأخبار، فإنه لا يعدو باب الاستظهار والاستيثاق، ثم إنه لم يرو عنه أنه طلب راوياً آخر إلا فى تلك الحادثة التى ذكرها الإمام الذهبى، وقد ردها ابن حزم^(٢) وأعلها بالانقطاع، فهى لا تصلح مقياساً صحيحاً لشرط أبى بكر فى قبول الأخبار، وهو الذى قبل أخباراً كثيرة برواية مخبر واحد.

وقد سبق أن بينت منهجه فى حكمه وقضائه كما ذكره ابن القيم، ولم يذكر أنه كان يطلب ممن يأتيه بالخبر شاهداً على ما يقول... وقد قبل خبر عائشة رضى الله عنها فى كفن الرسول ﷺ^(٣).

وأما عثمان رضى الله عنه فإنه لم يطلب راويين لكل خبر، وكل ما صدر عنه أنه استشهد بعض من حضر وضوءه، ليؤكد أنه توضحاً وضوء رسول الله ﷺ. وقد

(١) فتح البارى ص ١٩٥ ج ١.

(٢) انظر: الإحكام لابن حزم ص ١٤١ ج ٢.

(٣) الإحكام لابن حزم ص ١٢ ج ٢.

ثبت عنه أنه عمل بأخبار الآحاد، فقد سأل الفُرَيْعَةَ بنت مالك بن سنان - أخت أبي سعيد الخدرى - عن عدتها لوفاة زوجها^(١)، وقضى بخبرها.

وأما ما روى عن على رضى الله عنه من استخلاف مخبريه، فإن بعض هذا لم يكن منهجه وديدنه فى قبول جميع الأخبار، بل قبل بعض الأخبار من غير أن يستحلف الرواة، فقبل أخبار أبى بكر - كما ذكر هو نفسه - ولا فرق بين أبى بكر رضى الله عنه وغيره ممن تقبل روايته، كما عمل بخبر المقداد بن الأسود فى حكم المذى^(٢) من غير أن يحلفه.

وهكذا يتبين لنا أن الخلفاء الأربعة لم تكن لهم شروط خاصة لقبول الأخبار، وأن كل ما روى عنهم مما يوهم ذلك لا يعدو التثبت والاستظهار، وقد قبلوا أخبار الآحاد كما قبلها غيرهم من عامة الصحابة وعلمائهم. وكل ما صدر عنهم كان فى سبيل المحافظة على السنة الطاهرة.

هـ - ولم يكن التابعون وأتباعهم أقل اهتماماً من الصحابة بالاحتياط لقبول الحديث، فكانوا يتشبتون من الراوى بكل وسيلة تطمئن إليها قلوبهم، وإن من يتبع تاريخ الرواة، وكيفية تحملهم الحديث الشريف ليدرك تماماً جهود التابعين وأتباعهم، تلك الجهود التى بذلوها لنقل السنة إلى خلفهم. وإليكم بعض أخبارهم فى هذا الموضوع.

قيل لمسعر بن كدام: ما أكثر تشككك؟ قال: تلك محاماة عن اليقين^(٣).

وكان يزيد بن أبى حبيب محدث الديار المصرية يقول: إذا سمعت الحديث فانشده كما تنشد الضالة، فإن عرف فخذة، وإلا فدعه^(٤).

(١) أخرج حديث فريعة أحمد وأصحاب السنن الأربعة وصححه الترمذى والذهلى. انظر: سبل السلام ص ٢٠٣ ج ٣، وانظر: الكفاية ص ٢٧ والإحكام ص ١٥ ج ٢.

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد ص ٣٩ حديث ٦٠٦ وص ٤٦ حديث ٦١٨ ج ٣ بإسناد صحيح، وفتح البارى ص ٢٩٤ و ٣٩٤ ج ١، وصحيح مسلم ص ٢٤٧ حديث ١٧ - ١٩ ج ١.

(٣) المحدث الفاصل ص ١٣٢: ب.

(٤) الجرح والتعديل ص ١٩ ج ١.

فلم يكن للتابعين وأتباعهم شروط خاصة في قبول الرواية، ولم يُرو عن أحدهم أنه اشترط لقبول الخبر راويين أو أكثر، بل كانوا يتحملون عن كل من توافرت فيه شروط التحمل والأداء، إلى جانب العدالة التي أجمع عليها المحدثون، فإذا ما سقطت عدالة راوٍ طرحوا أخباره وامتنعوا عن الأخذ عنه. ومع هذا كانوا يتشبتون في قبول الأخبار بكل وسيلة تظمن إليها قلوبهم، لأن وصايا الصحابة وكبار التابعين لاتزال قائمة في نفوسهم، تذكروهم أن هذا الحديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم.

وكانوا يرون الأمانة في الذهب والفضة أيسر من الأمانة في الحديث^(١)، فنسمع عن سليمان بن موسى أنه لقي طاوساً فقال له: «إن رجلاً حدثني بكيت وكيت، فيقول له: إن كان ملياً فخذ منه»^(٢). وكان ابن عون يقول: لا يؤخذ هذا العلم إلا ممن شهد له بالطلب^(٣). ويسمع شعبة بن الحجاج عبد الله بن دينار في الولاء وهبته عن عبد الله بن عمر، فيستحلفه: هل سمعه من ابن عمر؟ فيحلف له^(٤). ويحدث الحكم عن سعيد بن المسيب في دية اليهودي والنصراني والمجوسى، فيقول له شعبة: أنت سمعته من سعيد بن المسيب؟ فيقول: لو شئت سمعت من ثابت الحداد، قال شعبة: فأنت ثابت الحداد فحدثني عن سعيد بن المسيب عن عمر مثله^(٥). فلا يمكننا أن نحكم على شعبة أنه لم يكن يقبل رواية أحد إلا بعد تحليفه، أو الاستيثاق برواية آخر معه. بل كل هذا كان من باب التثبت والاستيثاق والتأكد مما يسمون، حرصاً منهم على حفظ الحديث النبوى الشريف.

(١) انظر: الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٦٠: أ.

(٢) الجرح والتعديل ص ٢٧ ج ١.

(٣) مقدمة الجرح والتعديل ص ١٧٠.

(٤) المرجع السابق ص ١٧٠ ومن هذا الباب ما كان يتأكد منه رجال الحديث فقد قال الليث بن سعد: قدم علينا رجل من أهل المدينة يريد الإسكندرية مرابطاً، فنزل على جعفر بن ربيعة، قال: فعرضوا له بالخمسة، وعرضوا له بالعمرة فلم يقبل، واجتمع هو وأصحابنا يزيد بن أبى حبيب وغيره فأقبل يحدتهم: حدثني نافع عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ، قال: فجمعوا تلك الأحاديث وكتبوا بها إلى ابن نافع، وقالوا له: إن رجلاً قدم علينا وخرج إلى الإسكندرية مرابطاً وحدثنا، فأحببنا ألا يكون بيننا وبينك فيها أحد، فكتب إليهم، والله ما حدث أبى من هذا بحرف قط، فانظروا عمن تأخذون واحذروا قصاصنا ومن يأتيكم. انظر: مقدمة التمهيد ص ١٤: ب.

كيف روى الحديث في ذلك العصر..

باللفظ أم بالمعنى..؟

رأينا كيف كان الصحابة والتابعون وأتباعهم يتثبتون في قبول الأخبار، وعرفنا ورعهم وخشيتهم عندما يروون حديثاً عن رسول الله ﷺ، فكان أحدهم لا يروى الحديث إلا بعد الاستيثاق من ضبط حروفه وفهم معناه، وكان الواحد منهم إذا سئل يود لو أن أخاه كفاه مؤونة السؤال، حتى إن بعضهم كان يأبى أن يروى شيئاً عن رسول الله ﷺ مخافة الزيادة والنقصان، ومن هذا ما يرويه العلاء بن سعد ابن مسعود، قال: «قيل لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ: مالك لا تحدث كما يحدث فلان وفلان؟ فقال: ما بى ألا أكون سمعت مثل ما سمعوا أو حضرت مثل ما حضروا، ولكن لم يدرس الأمر بعد والناس متماسكون، فأنا أجد من يكفينى، وأكره التزديد والنقصان في حديث رسول الله ﷺ»^(١).

وإلى جانب ما روينا من أخبار حول تثبت الصحابة والتابعين في رواية الحديث، ومنهاجهم في الإقلال من الرواية مخافة الوقوع في الخطأ -لابد لنا من أن نتتبع بعض أخبارهم لنرى كيف كانوا يروون الحديث النبوي؟ وهل كانوا يحافظون على لفظ الرسول ﷺ، أو كانوا يروون ما يسمعون بألفاظ من عندهم دون أن يغيروا معنى ما سمعوا؟

إذا استعرضنا تلك الأخبار رأينا كثيراً من الصحابة حرصوا على نقل الحديث بألفاظه، وبعضهم ترخص عند الضرورة في روايته بالمعنى، وكما روى بعض الصحابة الحديث باللفظ وبعضهم بالمعنى نرى التابعين أيضاً قد نهجوا نهج الصحابة رضوان الله عليهم، ولكن مما لا شك فيه أن جميع الصحابة حرصوا على أداء الحديث كما سمعوه من الرسول عليه الصلاة والسلام، حتى إن بعضهم ما كان يرضى أن يبدل حرفاً بحرف، أو كلمة مكان كلمة، أو يقدم كلمة على

(١) الكفاية ص ١٧٢.

أخرى وردت في الحديث قبلها، وقد روى عن عمر رضى الله عنه، أنه كان يقول: «من سمع حديثاً فحدث به كما سمع فقد سلم»^(١) وروى نحوه عن عبد الله بن عمر وزيد بن أرقم.

وقد اشتهر من بين الصحابة الذين كانوا يتشددون في الحرص على لفظ الرسول ﷺ - عبد الله بن عمر. روى محمد بن سوقة قال: (سمعت أبا جعفر يقول: كان عبد الله بن عمر إذا سمع من نبي الله ﷺ شيئاً، أو شهد معه مشهداً، لم يقصر دونه أو يعدوه، قال: فينما هو جالس وعبيد بن عمير يقص على أهل مكة إذ قال عبيد بن عمير: مثل المنافق كمثل الشاة بين الغنمين، إن أقبلت إلى هذه الغنم نطحتها، وإن أقبلت إلى هذه نطحتها، فقال له عبد الله بن عمر: ليس هكذا، فغضب عبيد بن عمير، وفي المجلس عبد الله بن صفوان، فقال يا أبا عبد الرحمن، كيف قال رحمك الله؟ فقال: قال: مثلُ المنافقِ مثلُ الشاةِ بين الرِّبِضَيْنِ، إن أقبلت إلى ذا الربيض نطحتها، وإن أقبلت إلى ذا الربيض نطحتها. فقال له: رحمك الله هما واحد. قال: كذا سمعت^(٢)).

وروى ابن عمر حديث بنى الإسلام على خمس، فأعاده رجل فقال له ابن عمر: «لا، اجعل صيام رمضان آخرهن كما سمعت من في رسول الله ﷺ»^(٣) ولهذا نرى في بعض الأحاديث، قول الراوى - كذا وكذا - لا أدري بأيهما بدأ. أو أيهما قال قبل، ونحو ذلك. وهذا تنبيه من الراوى إلى أنه أدرك الحديث وفهمه، ولكنه لم يتأكد من ترتيب اسمين فيه أو كلمتين فيبين موضع شكه وأن الشك منه ليس في أصل الحديث، ومن هذا ما رواه خالد بن زيد الجهني أن رسول الله ﷺ قال: قريش والأنصار، وأسلم وغفار - أو غفار وأسلم^(٤) . . .

(١) المحدث الفاضل ص ١٢٧ : ب والكفاية ص ١٧٢ .

(٢) مسند الإمام أحمد ص ٢٩٧ حديث ٥٥٤٦ ج٧ وانظر: حديث ٥٣٥٩ ونحوه في ص ٢٠ حديث ٥٦١٠ ج٨ .

(٣) الكفاية ص ١٧٦ .

(٤) المرجع السابق ص ١٧٧ .

وتشدد بعض الرواة فى المحافظة على نص الحديث بألفاظه، فممنع زيادة حرف واحد، أو حذفه وإن كان لا يغير المعنى، ومن هذا ما رواه سفيان قال: حدثنا الزهري أنه سمع أنس بن مالك يقول: «نهى رسول الله ﷺ عن الدباء والمزفت أن ينتبذ فيه، فقيل لسفيان أن ينبذ فيه؟ فقال: لا، هكذا قاله لنا الزهري «ينتبذ فيه»^(١).

وكان بعض الرواة شديدي الحرص على اللفظ الذى سمعوه، فلا يخففون حرفاً ثقیلاً، ولا يثقلون حرفاً خفيفاً، ولا يبدلون حركات الحروف التى يسمعونها، بل يروونها كما سمعوها، وإن كان ذلك التغيير لا يبدل معناها، نحو (نما - نعى) فى حديثه ﷺ: «ليس الكاذبُ من أصلح بين الناس فقال خيراً أو نعى خيراً». قال حماد: سمعت هذا الحديث من رجلين، فقال أحدهم نما خيراً (خفيفة) وقال الآخر نعى خيراً (مثقلة)^(٢).

وبلغ من حرص بعض المحدثين على لفظ الحديث أنهم لم يكونوا يحدثون طلابهم إلا إذا كتبوا عنهم، إذ كانوا يكرهون أن يحفظوا عنهم، خوفاً من الوهم عليهم، من هذا ما يرويه الخطيب البغدادي بسنده عن ابن عيينة قال: «قال محمد ابن عمرو: لا والله لا أحدثكم حتى تكتبوه، إني أخاف أن تكذبوا عليّ - وفى رواية - أخاف أن تغلطوا عليّ»^(٣).

ومنه ما رواه الرامهرمزي بسنده عن طلحة بن عبد الملك، قال: «أتيت القاسم وسألته عن أشياء، فقلت: أكتبها؟ قال: نعم، فقال لابنه: انظر فى كتابه، لا يزيد عليّ شيئاً، قلت: يا أبا محمد إني لو أردت أن أكذب لم آتك، قال: إني لم أرد، إنما أردت إن أسقطت شيئاً يعدله لك»^(٤).

وكان الأعمش يقول: «كان هذا العلم عند أقوام، كان أحدهم لأن يخر من السماء أحب إليه من أن يزيد فيه واواً، أو ألفاً، أو دالاً...»^(٥).

(١) الكفاية ص ١٧٨. (٢) المصدر السابق ص ١٨٠، ١٨١.

(٣) الجامع لأخلاق الراوى وأداب السامع ص ١٠١: أ.

(٤) المحدث الفاصل ص ١٢٨: أ.

(٥) الكفاية ص ١٧٨.

وقد أدرك ابن عون ثلاثة ممن يشددون فى رواية الحديث على حروفه، وهم القاسم بن محمد بالحجاز، ومحمد بن سيرين بالبصرة، ورجاء بن حيوة بالشام^(١)، وكان إبراهيم بن ميسرة وطاوس يحدثان الحديث على حروفه^(٢)، وكان طاوس يعد الحديث حرفاً حرفاً^(٣). ويروى عن ابن عيينة قوله «محدثو الحجاز ابن شهاب ويحيى بن سعيد وابن جريج يجيئون بالحديث على وجهه»^(٤)، وكان مالك بن أنس يحرص على أداء حديث رسول الله ﷺ على حروفه^(٥).

وإلى جانب هذه الأخبار نرى أن أخباراً أخرى تدل على أن بعض الصحابة والتابعين رووا بعض الأحاديث بمعانيها، أو أنهم أجازوا إبدال كلمة بأخرى عند الضرورة، وكان أحدهم إذا اضطر إلى هذا أشار إلى ما يرويه ليس لفظه ﷺ. لذلك نرى بعض الصحابة يتورعون كثيراً عند ذكر حديث رسول الله ﷺ خشية الخطأ.

وقد روينا أن عبد الله بن مسعود كان إذا قال: «قال رسول الله ﷺ قال: هكذا أو نحو من هذا، أو قريباً من هذا، وكان يرتعد»^(٦).

وكان أبو الدرداء إذا فرغ من حديث عن رسول الله ﷺ قال: هذا أو نحو هذا أو شكله، وقد يقول: «اللهم إلا هكذا، فكشكله»^(٧).

وقال محمد بن سيرين: «كان أنس بن مالك قليل الحديث عن رسول الله ﷺ، وقال: وكان إذا حدث عنه قال: أو كما قال»^(٨).

(١) انظر: المحدث الفاضل ص ١٢٦: ب والكفاية ص ٢٠٥ والجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٠٠: ب وجامع بيان العلم وفضله ص ٨٠ ج١.

(٢) انظر: الكفاية ص ٢٠٥.

(٣) المحدث الفاضل ص ١٢٧: ب.

(٤) مقدمة الجرح والتعديل ص ٤٣.

(٥) انظر: الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٠٦: ب وجامع بيان العلم وفضله ص ٨١ ج١ والكفاية ص ١٨٨.

(٦) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٠٧: أ وجامع بيان العلم وفضله ص ٧٩ ج١. وانظر: سنن ابن ماجه ص ٨ ج١.

(٧، ٨) الكفاية ص ٢٠٥ وجامع بيان العلم وفضله ص ٧٩ ج١ والجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ٢٠٧. وذكر ذلك زهير بن حرب عن أبي الدرداء فى كتاب العلم ص ١٩١: ب.

وعن عروة بن الزبير قال: «قالت لى عائشة رضى الله عنها: يا بنى يبلغنى أنك تكتب عنى الحديث ثم تعود فتكتبه، فقلت لها: أسمع منك على شىء، ثم أعود فأسمعه على غيره، فقالت: هل تسمع فى المعنى خلافاً؟ قلت: لا، قالت: لا بأس بذلك»^(١). وعن أيوب عن محمد بن سيرين قال: ربما سمعت الحديث عن عشرة كلهم يختلف فى اللفظ والمعنى واحد^(٢).

قال مكحول: دخلت أنا وأبو الأزهر على وائلة بن الأسقع، فقلنا له: يا أبا الأسقع، حدثنا بحديث سمعته من رسول الله ﷺ، ليس فيه وهم ولا تزيد ولا نسيان، قال: هل قرأ أحدٌ منكم من القرآن شيئاً؟ قال: فقلنا نعم، وما نحن له بحافظين جداً، إنا لنزيد الواو والألف وننقص. قال: فهذا القرآن مكتوب بين أظهركم لا تألون حفظاً، وأنتم تزعمون أنكم تزيدون وتنقصون فكيف بأحاديث سمعناها من رسول الله ﷺ، عسى ألا نكون سمعناها منه إلا مرة واحدة، حسبكم إذا حدثناكم بالحديث على المعنى^(٣).

وروى قتادة عن زرارة بن أبى أوفى قال: لقيت عدة من أصحاب النبي ﷺ، فاختلفوا علىّ فى اللفظ واجتمعوا فى المعنى^(٤).

وقال جرير بن حازم: «سمعت الحسن يحدث بالحديث: الأصل واحد والكلام مختلف»^(٥)، وقال عمران القصير: «قلت له (للحسن البصرى): إنا نسمع الحديث فلا نحجى به على ما سمعناه، قال: لو كنا لا نحدثكم إلا كما سمعنا ما حدثناكم بحديثين، ولكن إذا جاء حلاله وحرامه فلا بأس»^(٦).

(١) الكفاية ص ٢٠٥.

(٢) المحدث الفاضل ص ١٢٦: ب وجامع بيان العلم وفضله ص ٧٩ ج١ والكفاية ص ٢٠٥.

(٣) الجامع لأخلاق الراوى ص ١٠٦ وتدريب الراوى ص ٣١٢ وموجزاً فى كتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٩١: ب.

(٤) المحدث الفاضل ص ١٢٥.

(٥) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٠٦: أ.

(٦) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٠٦: أ.

ورويت إجازة التحديث بالمعنى عن عبد الله بن مسعود وأبي الدرداء وأنس ابن مالك، وعائشة أم المؤمنين، وعمرو بن دينار، وعامر الشعبي وإبراهيم النخعي، وابن أبي نجيح، وعمرو بن مرة، وجعفر بن محمد بن علي، وسفيان ابن عيينة، ويحيى بن سعيد القطان^(١).

وقد أدرك ابن عون ثلاثة ممن يرخصون في رواية الحديث على المعنى هم: الحسن البصري، وإبراهيم النخعي. وعامر الشعبي^(٢).

ونرى هؤلاء الذين أجازوا رواية الحديث على المعنى عند الضرورة، كانوا يبينون للسامعين أنهم رووا بعض الحديث على المعنى بقولهم بعد التحديث، أو كما قال، ونحو هذا، ومنهم من كان لا يبيح لمن يسمع أن يكتب عنه الحديث حتى لا يظن أن ما رواه لفظ الرسول ﷺ، فكان عمرو بن دينار يحدث على المعنى ويقول: «أخرج علي من يكتب عنى»^(٣).

ولابد أن نقرر أن من أباح رواية الحديث على المعنى أباحها بشروط، ولم يطلق هذا لأى إنسان، وأجاوزا ذلك للضرورة، كأن يند اللفظ عن الذاكرة، أو يغيب لفظ الحديث عن المحدث عند الحاجة إلى روايته فيرويه بالمعنى، والضرورة تقدر بقدرها. قال الإمام الشافعي في صفات الراوى: «أن يكون من حدث به ثقة في دينه، معروفاً بالصدق في حديثه، عاقلاً لما يحدث به، عالماً بما يحيل معانى الحديث من اللفظ، وأن يكون ممن يؤدى الحديث بحروفه كما سمع لا يحدث به على المعنى، لأنه إذا حدث به على المعنى وهو غير عالم بما يحيل معناه -: لم يدر لعله يحيل الحلال إلى الحرام وإذا أده بحروفه فلم يبق وجه يخاف فيه إحالته الحديث.»^(٤).

(١) انظر: الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٠٦: أ.

(٢) انظر: المحدث الفاضل ص ١٢٦: ب وجامع بيان العلم: ص ٨٠ ج١ والكفاية ص ٢٠٥.

(٣) تذكرة الحفاظ: ص ١٠٧ ج١.

(٤) الرسالة ص ٣٧٠، ٣٧١ الفقرة ١٠٠١ وانظر: فيما يتعلق بالرواية على المعنى الفقرات: ٧٤٤، ٧٥٧،

١٠١٣ - ١٠١٥ و ١٠٣٦ - ١٠٤٢ من الرسالة. ونقل الرامهرمزي قول الشافعي في المحدث الفاضل

ص ٧٩: ب و ص ١٢٨: أ، وانظر أيضاً: معرفة السنن والآثار لليهقي ص ٩ ج١.

قال الرامهرمزي: «وقد دل قول الشافعي في صفة المحدث مع رعايته اتباع اللفظ، على أنه يسوغ للمحدث أن يأتي بالمعنى دون اللفظ، إذا كان عالماً بلغات العرب ووجوه خطابها، بصيراً بالمعاني والفقهاء، عالماً بما يحيل المعنى وما لا يحيله، فإنه إذا كان بهذه الصفة جاز له نقل اللفظ، فإنه يحترز بالفهم عن تغيير المعاني وإزالة أحكامها، ومن لم يكن بهذه الصفة كان أداء اللفظ له لازماً، والعدول عن هيئة ما يسمعه عليه محظوراً، وإلى هذا رأيت الفقهاء من أهل العلم يذهبون. ومن حججتهم في جواز ذلك: أن الله عز وجل قد قص من أنباء ما قد سبق قصصاً كرر ذكر بعضها في مواضع بألفاظ مختلفة، والمعنى واحد، ونقلها من ألسنتهم إلى اللسان العربي، وهو مخالف لها في التقديم والتأخير والحذف والإلغاء والزيادة والنقصان وغير ذلك»^(١).

ولم يكن الصحابة والتابعون بدعا في رواية بعض الأحاديث بمعناها، بل وجدوا دليل الجواز في منهج القرآن الكريم - كما ذكر الرامهرمزي - وفي سنة رسول الله ﷺ، فقد كان يرسل سفراءه ورسله فينقلون رسائله ويترجمونها إلى غير العربية، فإباحة ترجمة الحديث إلى لغة ثانية دليل على إباحة نقله بنفس اللغة على معناه، بلفظ عربي هو أقرب إلى لفظ الرسول ﷺ من ألفاظ اللغة الأجنبية^(٢)، بل هذا أولى بأن يكون مباحاً.

وللذين كرهوا الرواية على المعنى أدلة منها حديث «نصر الله امرأ سمع منا حديثنا فأداه كما سمعه»، وما رواه البراء بن عازب «أن النبي ﷺ قال: يا براء كيف تقول إذا أخذت مضجعتك؟ قال: قلت الله ورسوله أعلم، قال: «إذا أويت إلى فراشك طاهراً فتوسد يمينك، ثم قل اللهم أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت». فقلت كما علمني غير أني قلت ورسولك فقال بيده في صدري و(بنبيك) فمن قالها من ليلته ثم مات، مات على الفطرة»^(٣).

(٢) انظر: الكفاية ص ٢٠٣.

(١) المحدث الفاضل ص ١٢٤: ب.

(٣) الكفاية ص ١٧٥ والمحدث الفاضل ص ١٢٥: أ.

وقد أطال بعض العلماء القول في أدلة كل من المجيزين للرواية على المعنى والمانعين لها^(١). وأجمع العلماء كلهم على أنه لا يجوز للجاهل بمعنى ما ينقل أن يروى الحديث على المعنى، ومن أجاز هذه الرواية إنما أجازها للعالم بشروط، قال الماوردي: «إن نسي اللفظ جاز، لأنه تحمل اللفظ والمعنى، عجز عن أداء أحدهما، فيلزمه أداء الآخر، لاسيما أن تركه قد يكون كتمًا للأحكام، فإن لم ينسه لم يجز أن يورده بغيره، لأن في كلامه ﷺ من الفصاحة ما ليس في غيره»^(٢). وقال السيوطي: «ولا شك في اشتراط ألا يكون مما تعبد بلفظه... وعندى أنه يشترط ألا يكون من جوامع الكلم»^(٣).

بعد هذا يمكننا أن نحكم أن رواية الحديث بالمعنى كانت للضرورة، وكانت بقدر وخاصة بعد أن عرفنا ورع الصحابة والتابعين، ودقتهم في رواية الأخبار، وتحفظهم وتثبتهم مما يروون أو يسمعون، وهذا يرجح عندي أن الرواية بالمعنى إن وقعت تاريخياً من بعض الصحابة، فإنما كانت بألفاظ قريبة جداً من ألفاظه ﷺ، لأنهم رأوا رسول الله عليه الصلاة والسلام، وسمعوا منه وتخرجوا بحلقاته، واستضاءت قلوبهم بتوجيهه وعنايته، وكانوا على جانب عظيم من البيان والفصاحة، وهم أعلم بلغة العرب، لم يتسرب إلى كلامهم اللحن، ولم يغير سليقتهم ولسانهم امتزاج الأمم والشعوب.

ويقوى عندي أن معظم ما رواه الصحابة والتابعون كان بلفظ الرسول ﷺ - أن بعضهم كان يكتب الحديث بين يدي النبي الكريم، وكانوا يعقدون الحلقات يتذكرون فيها ما يسمعون منه عليه الصلاة والسلام، ويصحح بعضهم أخطاء

(١) تكلم الخطيب البغدادي في الرواية على المعنى واللفظ وذكر الأدلة في ذلك راجع الكفاية ص ١٩٨-٢٠٣ وتكلم العراقي حول الرواية بالمعنى انظر: فتح المغيب ص ٤٨ ج ٣ وما بعدها، وكذلك السيوطي في تدريب الراوي انظر: ص ٣١١ وما بعدها. وكذلك الحافظ ابن كثير انظر: الباعث الخشيت شرح اختصار علوم الحديث ص ١٥٧ وما بعدها، وفصل الشيخ طاهر الجزائري أقوال العلماء وأدلتهم في (توجية النظر) ص ٢٩٨-٣١٤ وهو خير من استوفى هذا البحث من المتأخرين.

(٢) تدريب الراوي ص ٣١٣.

(٣) المرجع السابق ص ٣١٤.

بعض، وإذا شكوا في أمر أو أشكل عليهم شيء رجعوا إلى النبي الأمين ﷺ، وكان أكثر الرواة من التابعين يكتبون ما يسمعون من الصحابة ويحفظونه، فمنهم من يذاكر الحديث حتى إذا ما وعاه صدره محاه، ومنهم من يحفظه ويحتفظ بصحفه وألواحه، ومنهم من حرص على كتابة الحديث وجمعه في كرايس أو في مصنف كالمصحف^(١).

وأما من كان لا يكتب من التابعين وأتباعهم فقد حرص على حفظ الحديث في صدره، وكانوا يذاكرون الأحاديث بين آونة وأخرى، ويرحلون من بلد إلى آخر ليسمعوا من الصحابة رضی الله عنهم، أو ليتأكدوا من صحة ما سمعوه عن رسول الله ﷺ، فيفهموا معناه ويضبطوا حروفه وألفاظه، ويزيد ثقة بأن جل ما روى عن رسول الله ﷺ كان بلفظه عليه الصلاة والسلام، تلك الحوافظ التي وهبها الله عز وجل لحملة الشريعة الإسلامية، ورواة الحديث الشريف من الصحابة والتابعين وأتباعهم، فيروى لنا التاريخ ما كان يحفظه أبو هريرة وغيره، وإن المرء ليعجب عندما يطلع على أخبار صحيحة، تذكر تلك الحوافظ العظيمة التي حملت إلينا السنة كذاكرة عبد الله بن عباس الذي اشتهر بسرعة حفظه، حتى إنه كان يحفظ الحديث من مرة واحدة، ويروى أنه سمع قصيدة لابن أبي ربيعة عدتها ثمانون بيتاً فحفظها من المرة الأولى، وفي الصحابة أمثاله كزيد ابن ثابت الذي حفظ معظم القرآن قبل بلوغه، وتعلم لغة اليهود في سبعة عشر يوماً، وفيهم عائشة أم المؤمنين التي كانت آية من آيات الذكاء والحفظ وغير هؤلاء.

وفي التابعين نافع مولى عبد الله بن عمر الذي لم يخطئ فيما حفظ، وأجمع النقاد على دقة حفظه، وفيهم ابن شهاب الزهري حافظ زمانه، وعامر الشعبي ديوان عصره، وقاتادة بن دعامة السدوسي مضرب المثل في سرعة الحفظ والضبط والإتقان.

(١) تعرضت لهذا في الباب الرابع من هذا الكتاب، وفصلت القول فيه.

فإذا طالعنا ما اختلف فيه الرواة من حيث اللفظ، مما تعددت طرقه وجدنا معظمه مما كان أخباراً عن عمل من أعماله ﷺ، أو تبليغاً لحكم واقعة شاهدها بأعينهم، فتراهم يقولون: «أمر رسول الله ﷺ بكذا»، و«نهى رسول الله ﷺ عن كذا»، والمعنى فى كل هذا واحد، وهذا طبيعى لا يدخل الريب فى مروياتهم، لاختلافهم فى صيغ الأداء، لأن كل راو عبر عما شاهده بلفظه، ومن النادر أن نرى اختلافاً فيما نقلوه إلينا من جوامع الكلم، أو مما يتعبد بلفظه، كصيغ الأذان والإقامة والدعاء والشهد وغير ذلك.

وليس جميع ما نقل إلينا مما اختلف لفظه بسبب الرواية بالمعنى، فجله يعود إلى تعدد مجالس الرسول ﷺ وكثرتها، فقد يتناول موضوعاً واحداً فى مناسبات مختلفة، ويجب السائلين بما يتناسب مع مداركهم، وقد يستفتيه أكثر من واحد فى واقعة واحدة، فيفتى كل واحد بما يكفيه ويروى غليله، بألفاظ مختلفة، وعبارات متفاوتة، تؤدى الغاية المقصودة، وما روى بالمعنى مع هذا لا يكاد يخفى على أهل هذا العلم، لكثرة دراستهم حديث الرسول ﷺ، وللأمانة العلمية التى كان عليها الرواة، فكانوا مثلاً رائعاً فى الضبط والدقة والإتقان، يتبعون بعض ما يروونه بعبارة تفيد احتياطهم فيما نقلوه، وينبهون فى أثناء سياق الحديث على موضع السهو أو الظن، وكانوا يحرصون دائماً على نقل اللفظ النبوى كما صدر عنه عليه الصلاة والسلام.

بعد هذا لا نرى داعياً للتهويل الذى يشيره بعض الكتاب وبعض المغرضين حول رواية بعض الأحاديث بالمعنى، ولا وجه لإثارة خلاف أصبح طى التاريخ، وكان معظم ما ذهب إليه العلماء من إباحة رواية الحديث بالمعنى وعدم روايته خلافاً عقلياً نظرياً، وإن وقع تاريخياً فإنما وقع فى الصدر الأول وبقدر لا ضرر منه، لذلك نرى أنه من العبث إثارة مثل هذا الموضوع - الذى انصرم أوانه - وتشكيك الأمة فى حديث رسولها الأمين، وليس هناك أى مسوغ لإدخال الريب فى النفوس، بعد أن أجمعت الأمة على قبول الكتب الصحاح، وعلى أنها حديث رسول الله ﷺ، الذى نقل إلينا بأسلم الطرق العلمية، على أيدي خيار علماء الأمة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم.

وقد تناول (أبو رية) في كتابه «أضواء على السنة المحمدية» هذا البحث، إلا أنه أحاط الموضوع بهالة، توهم من لا خبرة له بأن معظم الحديث النبوي قد روى بألفاظ الرواة^(١)، وجسم خطر الرواية بالمعنى، بما لا يتفق والواقع التاريخي، وتحدث عن بعض الخلاف العقلي النظري على أنه مما وقع بالفعل، ورتب على جواز الرواية بالمعنى نتائج، إن صح ترتبها على رواية غير الحديث بالمعنى. لا يمكن أن تنتج عن رواية الحديث فضلاً عن أنها لم ترتب من جراء رواية بعض الأحاديث بمعناها، لما عرفنا من دقة النقاد والرواة، وكثرة طرق الرواية، ومقابلتها ومناقشتها، وكل ما في الأمر أن بعض الأحاديث رويت بمعناها، ولم ينتج عن ذلك خطر على الدين ولا غاب ذلك عن المسلمين.

ونحن لا نشك أن الرواية بالمعنى قد توقع في الخطأ، ولكن هذا الخطأ - إذا وقع - لم يخف على علماء الأمة، فلا وجه لذلك التهويل والإيهام، لأن النقاد والعلماء اعتنوا عناية عظيمة بحفظ الحديث وروايته، وأشاروا إلى كل كبيرة وصغيرة ورووا أكثر الأحاديث من طرق عدة تنفي الشك وتطرح الخبث، فما الداعي - بعد هذا - لأن يثير (أبو رية) شبهة حول الحديث وروايته؟

على أنه لم يكتف بذكر اختلاف السابقين في الرواية وذكر أقوالهم، بل حاول أن يثبت أن جميع ما روى مختلفاً لفظه إنما كان نتيجة لرواية الحديث بالمعنى،

(١) افتتح أبو رية موضوعه هذا فقال: «يحب الذين لا خبرة لهم بالعلم، ولا علم عندهم بالخبرة أن أحاديث الرسول التي يقرءونها في الكتب، أو يسمعونها ممن يتحدثون بها، قد جاءت صحيحة المبنى محكمة التأليف، وأن ألفاظها قد وصلت إلى الرواة مصونة كما نطق النبي بها، بلا تحريف ولا تبديل، وكذلك يحسبون أن الصحابة ومن جاء بعدهم، ممن حملوا عنهم إلى زمن التدوين، قد نقلوا هذه الأحاديث بنصها كما سمعوها، وأدوها على وجهها كما لقنوها، فلم ينلها تغير ولا اعتراها تبديل، ومما قر في أذهان الناس أن هؤلاء الرواة قد كانوا جميعاً صنفاً خاصاً بين بني آدم في جودة الحفظ وكمال الضبط وسلامة الذاكرة... ولقد كان ولا جرم لهذا الفهم أثر بالغ في أفكار شيوخ الدين - إلا من عصم ربك - فاعتقدوا أن هذه الأحاديث في منزلة آيات الكتاب العزيز، من وجوب التسليم بها، وفرض الإذعان لأحكامها، بحيث يأثم أو يرتد أو يفسق من خالفها، ويستتاب من أنكرها أو شك فيها». انظر: أضواء على السنة المحمدية ٥٤. ولا مجال للرد على فريته هذه هنا، وستظهر لنا عناية النقاد والرواة وضبطهم في النصوص التالية من هذا الكتاب.

وساق شواهد على هذا، فذكر اختلاف صيغ التشهد، واستطرد وخرج عن الموضوع، ثم ذكر «حديث الإسلام والإيمان» وحديث «زوجتكها بما معك» وغير ذلك، وما من شيء استشهد به إلا وللعلماء قول فيه.

وقد رد على (أبو رية) العلامة المعاصر (عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني) رداً مفصلاً^(١) يكفي أن أستشهد بفقرة واحدة منه.

قال العلامة اليماني: (قال - أبو رية - «ص ٦٠»: «صيغ التشهد» وذكر اختلافها^(٢)). أقوى: يتوهم أبو رية... أو يوهم - أن النبي ﷺ، إنما علمهم تشهداً واحداً، ولكنهم أو بعضهم لم يحفظوه، فأتوا بألفاظ من عندهم مع نسبتها إلى النبي ﷺ، وهذا باطل قطعاً، فإن التشهد يكرر كل يوم بضع عشرة مرة على الأقل في الفريضة والنافلة، وكان النبي ﷺ يحفظ أحدهم حتى يحفظ، وقد كان النبي ﷺ يقرئ الرجلين السورة الواحدة هذا بحرف وهذا بآخر. فكذاك علمهم مقدمة التشهد بكل ما صح عن النبي ﷺ، وأما ذكر عمر التشهد على المنبر، وسكوت الحاضرين فإنما وجهه المعقول هو تسليمهم أن التشهد الذي ذكره صحيح مجزئ. وقد كان عمر يقرأ في الصلاة وغيرها القرآن ولا يرد عليه أحد. مع أن كثيراً منهم تلقوا عن النبي بحرف غير الحرف الذي تلقى به عمر، ومثل هذا كثير، ومن الجائز أن يكونوا - أو بعضهم - لم يعرفوا اللفظ الذي ذكره عمر، ولكنهم قد عرفوا أن النبي ﷺ علم أصحابه بألفاظ مختلفة وعمر عندهم ثقة^(٣).

(١) في كتابه الأنوار الكاشفة الذي وضعه رداً على كتاب أبي رية أضواء على السنة. انظر: ص ٨٢-٨٨ وانظر: ظلمات أبي رية لمحمد عبد الرزاق حمزة ص ٦٨-٩٩.

(٢) بعد أن ذكر أبو رية صيغ التشهد عن الصحابة (ص ٦٠-٦٢) قال: «هذه تشهدات ثمانية وردت عن الصحابة وقد اختلفت ألفاظها، ولو أنها كانت من الأحاديث القولية التي رويت بالمعنى لقلنا عسى! ولكنها من الأعمال المتواترة التي كان يؤديها كل صحابي مرات كثيرة كل يوم، وهم يعدون بعشرات الآلاف، وما بلغت النظر أن كل صاحب تشهد يقول، إن الرسول كان يعلمه التشهد كما يعلمهم القرآن، وأن تشهد عمر قد ألقاه من فوق منبر رسول الله والصحابة جميعاً يسمعون، فلم ينكر عليه أحد منهم ما قال كما ذكر مالك في الموطأ» ١ هـ، انظر: أضواء السنة ص ٦٣ إنه يريد أن يشككنا حتى فيما نتعبد به وفيما ثبت متواتراً، والرد على أبي رية وعلى دعواه في طي عبارته، فلو تجرد وانطلق إلى أفق أوسع من أفقه ما استغرب تعدد هذه الصيغ ولا فتح على المسلمين باب الشك والريبة ولا شكك في الصحابة حفظة الشريعة وحراسها.

(٣) الأنوار الكاشفة ص ٨٣.

وأرى أن نستكمل بحثنا هذا بما ذهب إليه أئمة اللغة العربية، الذين أجازوا الاستشهاد بالحديث النبوي لإثبات قواعد النحو.

قال عبد القادر البغدادي صاحب خزنة الأدب. «وأما الاستدلال بحديث النبي ﷺ فقد جوزه ابن مالك وتبعه الشارح المحقق (الرضي) في ذلك، وزاد عليه بالاحتجاج بكلام أهل البيت رضي الله عنهم، وقد منعه ابن الضائع وأبو حيان وسندهما أمران:

أحدهما: أن الأحاديث لم تنقل كما سمعت من النبي ﷺ، وإنما رويت بالمعنى.

وثانيهما: أن أئمة النحو المتقدمين من المصريين لم يحتجوا بشيء منها.

ورد الأول - على تقدير تسليمه - بأن النقل بالمعنى إنما كان في الصدر الأول قبل تدوينه في الكتب، وقبل فساد اللغة، وغايته تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به فلا فرق، على أن اليقين غير مشروط بل الظن كاف.

ورد الثاني: بأنه لا يلزم من عدم استدلالهم بالحديث عدم صحة الاستدلال به. والصواب: جواز الاحتجاج بالحديث للنحوي في ضبط ألفاظه، ويلحق به ما روى عن الصحابة وأهل البيت، كما صنع الشارح المحقق».

ثم قال نقلاً عن الدماميني في الرد على من لا يحتج بالحديث في اللغة:

«وقد رد هذا المذهب الذي ذهبوا إليه البدر الدماميني في (شرح التسهيل) - والله دره قد أجاد في الرد - قال: قد أكثر المصنف من الاستدلال بالأحاديث النبوية، وشنع أبو حيان عليه، وقال: إن ما استند إليه من ذلك لا يتم له، لتطرق احتمال الرواية بالمعنى فلا يوثق بأن ذلك المحتج به لفظة ﷺ، حتى تقوم به الحجة. وقد أجريت ذلك لبعض مشايخنا فصوب رأي ابن مالك فيما فعله بناء على أن اليقين ليس بمطلوب في هذا الباب، وإنما المطلوب غلبة الظن الذي هو مناط الأحكام الشرعية، وكذا ما يتوقف عليه من نقل مفردات الألفاظ وقوانين الإعراب، فالظن

فى ذلك كله كاف، ولا يخفى أنه يغلب على الظن أن ذلك المنقول المحتج به لم يبدل، لأن الأصل عدم التبديل، ولا سيما أن التشديد فى الضبط والتحرى فى نقل الأحاديث شائع بين النقلة والمحدثين. ومن يقول منهم بجواز النقل بالمعنى، فإنما هو عندى بمعنى التجويز العقلى الذى لا ينافى وقوع نقيضه فلذلك تراهم يتحرون فى الضبط ويتشددون مع قولهم بجواز النقل بالمعنى، فيغلب الظن من هذا كله أنها لم تبدل ويكون احتمال التبديل فيها مرجوحاً فيلغى، ولا يقدر فى صحة الاستدلال بها.

ثم إن الخلاف فى جواز النقل بالمعنى إنما هو فيما لم يدون ولا كتب، وأما ما دون وحصل فى بطون الكتب فلا يجوز تبديل ألفاظه من غير خلاف بينهم، قال ابن الصلاح بعد أن ذكر اختلافهم فى نقل الحديث بالمعنى: «إن هذا الخلاف لا نراه جارياً ولا أجراه الناس - فيما نعلم - فيما تضمنته بطون الكتب، فليس لأحد أن يغير لفظ شيء من كتاب مصنف ويثبت فيه لفظاً آخر». اهـ.

وتدوين الأحاديث والأخبار - بل تدوين^(١) كثير من المرويات - وقع فى الصدر الأول قبل فساد اللغة العربية حين كان كلام أولئك المبدلين - على تقدير تبديلهم - يسوغ الاحتجاج به، وغايته يومئذ تبديل لفظ بلفظ يصح الاحتجاج به، فلا فرق بين الجميع فى صحة الاستدلال، ثم دون ذلك المبدل - على تقدير التبديل - ومنع من تغييره ونقله بالمعنى، كما قال ابن الصلاح فبقى حجة فى بابه، ولا يضر توهم السابق فى شيء من استدلالهم المتأخر، والله أعلم بالصواب^(٢).

(١) فى الأصل (بل كثير) فحذفنا الواو لأنه لا يجتمع حرفا عطف معاً وأضفنا كلمة (تدوين) تحريماً للعبارة.

(٢) خزنة الأدب: ص ٤-٧ ج ١.

الفصل الثانى

وفيه

النشاط العلمى فى عصر الصحابة والتابعين

شعر الصحابة بالتبعية الملقاة على عاتقهم لحفظ الشريعة وتطبيقها، فسارعوا إلى صيانة مصادرها الأولى خشية ضياع القرآن الكريم من صدور القراء (الحفاظ)، إثر حروب الردة، ومن ثم جمعه فى مصحف على عهد الصديق، وخافوا عاقبة الاختلاف فى القراءات فى الأمصار المختلفة، فنسخوه فى مصاحف وزعت على الأقاليم الإسلامية فى عهد عثمان رضى الله عنه وكانوا فى أحكامهم يرجعون إلى الكتاب الكريم ثم إلى السنة، يسألون عن حكم مأثور عن الرسول فيما يجد لهم من قضايا، فإذا ما ثبت عندهم شىء عن رسول الله ﷺ تسكوا به وطبقوه، وقد ذكرت طريقة اجتهادهم فيما سبق.

وقد وجد الصحابة الضرورة تلح لحفظ السنة، فحاول الصديق ثم الفاروق حفظها كتابة - وما منعهم من ذلك إلا حرصهم على القرآن والسنة كما سيتبين لنا هذا فى بحث تدوين السنة - فما كان منهم إلا أن أكبوا على دراستها والسؤال عنها، والبحث عن الحديث عند حفاظه، وكفينا مثالا لهذا ما كان يفعله ابن عباس بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقد روى عكرمة عن ابن عباس أنه قال: «لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسال أصحاب رسول الله، فإنهم اليوم كثير، قال: واعجبا لك يابن عباس! أترى الناس يفتقرون إليك، وفى الناس من أصحاب رسول الله من فيهم؟ قال: فترك ذاك، وأقبلت أنا أسأل أصحاب رسول الله عن الحديث، فإنه كان يبلغنى الحديث عن الرجل، فأتى بابيه وهو قائل^(١)، فأتوسد ردائى على بابيه، تسفى الريح على من التراب، فيخرج فيقول: يا ابن عم رسول الله ما جاء بك؟ ألا أرسلت إلى فآتيك؟ فأقول: أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث^(٢).»

(١) أى وهو فى يوم الظهيرة من القيلولة والقائلة.

(٢) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ٢٤: أ وانظر: ص ٢٤: ب منه وتذكرة الحفاظ ص ٣٨ ج١.

وكانت رغبة الصحابة في سماع حديث رسول الله ﷺ عظيمة، وهل أحب إلى المرء من أن يسمع حكم مربيه وأحكامه وتشريعاته؟ وهل من شيء أعز على المسلم من أن يحيى آثار منقذه من الضلال ورائده إلى الخير؟ لقد كان الصحابة مندفعين بإخلاص إلى سماع حوادث رسول الله ﷺ وسيرته وحديثه، فهذا أبو بكر الصديق يقف عند عازب والد البراء فيشتري منه رحلاً وهو للناقة كالسرج للفرس، ثم يقول له: «مر البراء فليحمله إلى منزلي، فيقول: لا، حتى نحدثنا كيف صنعت حين خرج رسول الله ﷺ وأنت معه. فقص عليه خبر الهجرة^(١)».

وهذا علي أمير المؤمنين يلتقي بكعب الأحبار فيقول له كعب: يا علي أسمعت رسول الله ﷺ يقول في المنجيات؟ قال: لا. ولكن سمعته يقول في الموبقات، فقال كعب لعلي: حدثني بالموبقات حتى أحدثك بالمنجيات فقال علي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الموبقات: ترك السنة، ونكث البيعة، وفراق الجماعة. فقال كعب لعلي: المنجيات: كف لسانك، وجلس في بيتك، وبكاؤك على خطيئتك»^(٢).

وقد روى بعض الصحابة عن بعض كثيرًا سواء في حياته عليه الصلاة والسلام أو بعد وفاته، ومن ذلك رواية الفاروق عمر عن الصديق رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ حديث «لا نورث ما تركناه صدقة» وهو حديث صحيح أخرجه مسلم، ومنها رواية عثمان رضي الله عنه عن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقاً إلا حرم على النار: لا إله إلا الله» أخرجه مسلم في صحيحه، ورواية أبي بكر عن بلال رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «يا بلال أصبحوا بالصبح، فإنه خير لكم» ورواية عبد الرحمن بن عوف عن الفاروق رضي الله عنهما قال: رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده: وما رواه بجالة بن عبدة. قال: كنت كاتباً لجرير بن معاوية على مناذر^(٣)، فجاءنا كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه: انظر مجوس هجر من

(١) مسند الإمام أحمد ١٥٤-١٥٦ ج١ وانظر: فتح الباري ص ٤٣٥ ج٧.

(٢) للمحدث الفاضل ص ١٤٩ أ.

(٣) مناذر هما بلدتان بناوحي خوزستان، مناذر الكبرى ومناذر الصغرى، وهما من كور الأهواز، وقد فتحنا

سنة (١٨) هـ. انظر: معجم البلدان ص ١٦٠ ج٨.

قبلك، فخذ منهم الجزية، فإن عبد الرحمن بن عوف أخبرني أن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس أهل هجر، وروت عائشة عن الصديق، كما روى عنها، وروى ابن عمر عن ابن عباس، وابن عباس عن ابن عمر، كما ورت عائشة عنه، وروى ابن عباس عنها وروى جابر بن عبد الله عن أبي سعيد الخدري، كما روى أبو سعيد عن جابر، وأنس عن جابر، وجابر عن أنس، وروى ابن عباس عن جابر ابن عبد الله كما روى جابر عنه، وروى أبو سعيد الخدري عن ابن عباس كما روى ابن عباس عنه^(١)، ومن يراجع كتب السنن وتراجم الرواة يجد كثيراً من روايات بعض الصحابة عن بعض، وهذا دليل واضح على النشاط العلمي الذي كان بينهم، يتبادلون الأحاديث ويسمعون ويسمع منهم ويروون ويروى عنهم. كل هذا في سبيل معرفة الحق وحفظ السنة المطهرة.

ولم يكتف الصحابة بدراسة الحديث فيما بينهم، بل حثوا على طلبه وحفظه وحضوا التابعين على مجالسة أهل العلم والأخذ عنهم، ولم يتركوا وسيلة لذلك إلا أفادوا منها. من هذا ما روى عن عمر رضى الله عنه قال: «تفقهوا قبل أن تسودوا»^(٢) وقال أيضاً «تعلموا الفرائض والسنة كما تتعلمون القرآن»^(٣) وكان أبو ذر مثلاً رائعاً لنشر الحق وتبليغ سنة رسول الله ﷺ، يروى عنه أنه قال: «لو وضعت المصمامة - السيف الصارم - على هذه، وأشار إلى قفاه، ثم ظننت أني أفنذ كلمة سمعتها من النبي ﷺ قبل أن تجيزوا علياً لأنفذتها»^(٤). وما كان أبو ذر بدعاً في الصحابة، إنما كان أحد الأئوف الذين ساهموا في حفظ السنة.

عن أبي قلابة قال: «قال ابن مسعود: عليكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه ذهاب أهله...»^(٥) وكان ينهى عن البدع ويأمر باتباع السنة فيقول: «الاقتصاد في

(١) انظر: اللطائف في دقائق المعارف من علوم الحفاظ الأعراف مخطوطة الظاهرية ص ١: أ - ٣: ب.

(٢) فتح الباري ص ١٧٥ ج ١.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ص ٣٤ ج ٢.

(٤) فتح الباري ص ١٧٠ ج ١.

(٥) تذكرة الحفاظ ص ١٥ ج ١ ومجمع الزوائد ص ١٢٥ ج ١ وانظر: حظه على مذاكرة الحديث في معرفة علوم الحديث ١٤١.

السنة أفضل من الاجتهاد في البدعة^(١)». وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: «تزاوروا وتذاكروا الحديث، فإنكم إلا تفعلوا يدرس^(٢)».

ووقف عمرو بن العاص على حلقة من قريش فقال: «ما لكم قد طرحتم هذه الأغيلمة؟ لا تفعلوا، وأوسعوا لهم في المجلس، وأسمعوهم الحديث، وأفهموهم إياه، فإنهم صغار قوم أوشك أن يكونوا كبار قوم، وقد كنتم صغار قوم فأنتم اليوم كبار قوم^(٣)».

وكان ابن عباس يحض طلابه على مذاكرة الحديث، فيقول: تذاكروا هذا الحديث لا ينفلت منكم، فإنه ليس بمنزلة القرآن، القرآن مجموع محفوظ، وإنكم إن لم تذاكروا هذا الحديث تفلت منكم، ولا يقل أحدكم حدث أمس لا أحدث اليوم، بل حدث أمس، وحدث اليوم، وحدث غداً..، كما كان يقول: إذا سمعتم منا شيئاً فتذاكروه بينكم^(٤).

وكان أبو سعيد الخدري يحب طلاب العلم ويفسح لهم المجالس، وكثيراً ما كان يقول: تحدثوا، فإن الحديث يذكر بعضه بعضاً^(٥).

ومما يروى عن أبي أمامة الباهلي أنه قال لطلابه: «إن هذا المجلس من بلاغ الله إياكم، وإن رسول الله ﷺ قد بلغ ما أرسل به، وأنتم فبلغوا عنا أحسن ما تسمعون. وفي رواية كان يحدثهم حديثاً كثيراً عن رسول الله ﷺ، فإذا سكت قال: اعقلوا، بلغوا عنا كما بلغناكم^(٦)».

وهكذا كان الصحابة الكرام يتواصلون بحفظ الحديث ومذاكرته ويحضون طلابهم على ذلك، ويحثونهم على تبليغ ما يسمعون منهم.

(١) تذكرة الحفاظ ص ١٥ ج١ ومجمع الزوائد ص ١٢٥ ج١ وانظر: حضه على مذاكرة الحديث في معرفة علوم الحديث ١٤١.

(٢) شرف أصحاب الحديث ص ٩٩. وانظر أيضاً: معرفة علوم الحديث ص ٦، ١٤١.

(٣) شرف أصحاب الحديث ص ٨٩. ب.

(٤) شرف أصحاب الحديث ص ٩٩: أ وانظر: نحوه في الجامع لأخلاق الرواي وآداب السامع نسخة الظاهرية ص ٤٨: ب.

(٥) شرف أصحاب الحديث ص ١٠٥: أ. (٦) شرف أصحاب الحديث ص ١٠٠: أ.

وقد سار التابعون وأتباعهم على نهج الصحابة، فكانوا يوصون أولادهم وتلاميذهم بحفظ السنة وحضور مجالس العلم، فقد أوصى عروة بنيه بهذا كما أوصى طلابه^(١)، وكان علقمة يشجع طلابه على مذاكرة الحديث ودراسته^(٢) كما كان عبد السرحمن بن أبي ليلى يقول: إحياء الحديث مذاكرته فتذاكروه^(٣). واشتهرت بين العلماء عبارة «تذاكروا الحديث فإن الحديث يهيج الحديث^(٤)».

وأكثر من هذا، كان بعض الآباء يشجعون أبناءهم على حفظ الحديث، ويقدمون إليهم جوائز كلما حفظوا شيئاً منه، من هذا ما رواه النضر بن الحرث قال: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: قال لى أبى: يا بنى، اطلب الحديث، فكلما سمعت حديثاً وحفظته فلك درهم. فطلبت الحديث على هذا^(٥).

ومهما يكن موقف المربين فى هذا العصر من هذا التشجيع فإنه وسيلة مبدئية لحفظ الحديث ودراسته، إن كانت فى نظر الطفل هى الغاية فإنها لا تلبث أن تصبح وسيلة، فإذا ما أُلّف حفظ الحديث، وتعطشت نفسه إليه تجسّمت الغاية الأصلية أمامه، وعرف قيمتها، وقدر نفع الحديث، وعرف معناه، وأصبح من عشاقه، سواء انقطعت تلك الجوائز أم لم تنقطع.

وإن التاريخ ليحفظ لنا أخباراً كثيرة تثبت إقبال طلاب العلم على طلب الحديث إقبالاً لا مثيل له، بدافع ذاتى، وميل نفسى، حتى إن بعض طلاب العلم المتفانين فى حب الحديث كانوا يؤدون بعض الخدمات من أجل سماع حديث أو حديثين^(٦).

(١) انظر: طبقات ابن سعد ص ١٣٤، ١٣٥ قسم ٢ ج ٢ وانظر: المحدث الفاضل نسخة دمشق ص ١٥ ب، ج ١. (٢) (٤، ٣) انظر: شرف أصحاب الحديث ص ١٠٠ ب، وانظر: كتاب العلم لزهير بن حرب فإن فيه بعض هذا ص ١٨٩ ب وكذلك فى الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ٤٤٦ ب والمحدث الفاضل ص ١٢٩ ب - ١٣٠ ب.

(٥) شرف أصحاب الحديث ص ٩٠، وإبراهيم بن أدهم عاصر الثورى ويغلب أن وفاته سنة (١٩١) كان ورعاً مجاهداً، انظر: البداية والنهاية ص ١٣٥ ج ٢.

(٦) روى سفيان بن عيينة قال: كان أبى صيرفياً بالكوفة فركبه الدين فحملنا إلى مكة فلما رحنا إلى المسجد لصلاة الظهر، وصرت إلى باب المسجد إذا شيخ على حمار فقال لى يا غلام أمسك على هذا الحمار حتى أدخل المسجد فأركع، فقلت: ما أنا بفاعل أو محدثنى، قال: وما تصنع أنت بالحديث؟ واستصغرنى، فقلت: حدثنى. فقال: حدثنى جابر بن عبد الله وحدثنا ابن عباس فحدثنى بثمانية أحاديث فأمسكت حماره، وجعلت أحمظ ما حدثنى به فلما صلى وخرج قال: ما نفعك ما حدثتك به، حبستنى؟ فقلت: حدثنى بكذا وحدثنى بكذا، فرددت عليه جميع ما حدثنى به فقال: بارك الله فيك تعال غدا إلى المجلس، فإذا هو عمرو بن دينار (٤٨-١٢٦هـ) انظر: المحدث الفاضل مخطوطة دمشق ص ١٦ ب-١٧ أ ج ١.

وقد كانت المنافسة العلمية المحيية قائمة بين طلاب الحديث فى ذلك العصر، فالذكى من تمكن من حفظ أحاديث فى باب كذا وباب كذا، والمجد من أسرع إلى صحابى وأخذ عنه قبل وفاته، والمفلح من حظى بحب شيخه، وتمكن من الانفراد به، والكتابة عنه، والقراءة عليه ثم العرض والتصحيح بين يديه . . .

لكل هذا رأينا أصحاب الحديث يجدون فى طلب العلم الشريف، ويتبارون فى تحصيله^(١)، وكثر طلاب العلم كثرة تتلج لها الصدور، وتشرق بها النفوس حتى إن أحد الصحابة كان يحدث الناس، فيكثرون عليه، فيصعد فوق بيت ويحدثهم^(٢) قال أنس بن سيرين: قدمت الكوفة قبل الجماجم، فرأيت بها أربعة آلاف يطلبون الحديث^(٣)، وفى رواية زاد: فقال: وأربعمائة قد فقهوا^(٤). فقبل بداية الربيع الأخير من القرن الأول أضحت الكوفة محط أنظار أهل الحديث، ولم يقتصر هذا النشاط على قطر دون آخر، بل كان عامًّا شاملًا. فحلقات العلم كانت تعقد فى كل مكان، ففى جامع دمشق حلقات أبى الدرداء التى تضم نيفا وخمسمائة وألف طالب^(٥)، إلى جانب حلقات غيره من شيوخ دمشق، التى كان يكتب فيها الطلاب^(٦)، كما كانت تعقد فى حمص وحلب والفسطاط والبصرة والكوفة واليمن إلى جانب حلقات ينبوع الإسلام فى مكة والمدينة، فقد كانت فى المدينة كالروضة يختار منها طالب العلم ما يشاء^(٧).

وفى عهد عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى، كان المسجد الحرام يغص بطلاب العلم، حتى إن الخليفة أعجب بهم عندما زاره فوجد فيه حلقة لا تحصى،

(١) انظر: المحدث الفاضل ص ١٤٣: ب فيها أخبار عن ذلك.

(٢) انظر: كتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٩٢.

(٣) المحدث الفاضل ص ٨١: أ وكانت دير الجماجم وقعة مشهورة بين الحجاج وعبد الرحمن بن الأشعث سنة (٨٢هـ) وفيها قتل عبد الرحمن بن الأشعث وكثير من القراء. انظر: تاريخ الطبرى ص ١٥٧ ج ٥. ودير الجماجم بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها على طرف البئر للسالك إلى البصرة: معجم البلدان ص ١٣١ ج ٤.

(٤) المحدث الفاضل ص ١٣٥، ب.

(٥، ٦) انظر: التاريخ الكبير لابن عساکر ص ٦٩ ج ١.

(٧) انظر: المحدث الفاضل ص ٩: ب.

تضم أبناء المسلمين وطلاب العلم، فسأل عن شيوخ هذه الحلقات، فكان فيها عطاء، وسعيد بن جبير، وميمون بن مهران، ومكحول، ومجاهد، وغيرهم، فحث أبناء قریش علی طلب العلم والمحافظة علیه^(١).

وستجلی لنا نشاط المراكز العلمية فی الدولة الإسلامية عندما نتكلم عن انتشار العلم فی عهد الصحابة والتابعین.

وقد قبض الله لهذه الأمة أساتذة أوتوا العلم والأدب وأصول التربية، ترعرعوا بین یدی رسول الله ﷺ ویدی أصحابه الكرام، واجتهد القائمون علی التعليم منهم فی ذلك العصر فی تعليم تلاميذهم وجلسائهم، واعتنوا عناية عظيمة بالنشء الجدید، فنرى إسماعیل بن رجاء - من أقران الأعمش - یجمع الصبیان ویحدثهم^(٢). ومر رجل بالأعمش - سلیمان بن مهران - وهو یحدث فقال له: تحدث هؤلاء الصبیان؟ فقال الأعمش: هؤلاء الصبیان یحفظون علیک دینک^(٣). وكان مطرف بن عبد الله یقول: لأنتم أحب إلی مجالسة من أهلی^(٤). وكان سفیان الثوری یقول: لو لم یأتونی - (یعنی طلاب الحدیث) لأتیتهم فی بیوتهم^(٥). وكانوا یعملونهم الحدیث والأدب فیہ، واحترامه وإجلاله^(٦)، وكانت حلقات العلم مكانة جلیلة، وكان طلاب الحدیث یوقرون أساتذتهم، ویفخرون بخدمتهم، والأخذ عنهم، وكان سلوكهم مع أساتذتهم فی غاية الأدب والاحترام، سواء أكان هذا فی التلقى عنهم أم فی مناقشتهم، ویؤثر عن كثير من الصحابة والتابعین نصائح لطلاب العلم فی هذا الصد^(٧).

(١) انظر: المحدث الفاضل ص ٣٥ ب-٣٦.

(٢) انظر: کتاب العلم لزهیر بن حرب ص ١٩٠.

(٣) شرف أصحاب الحدیث ص ٨٩ أ وانظر: المحدث الفاضل نسخة دمشق ص ١٥ ج١.

(٤) شرف أصحاب الحدیث ص ١٠٢ ب.

(٥) شرف أصحاب الحدیث ص ١٠٣ ب واشتهر عن عروة بن الزبیر أنه كان یتألف الناس علی حدیثه، انظر:

کتاب العلم لابن حرب ص ١٨٧.

(٦) انظر: طبقات ابن سعد ص ٣٤٥ ج٥.

(٧) انظر: العقد الفرید ص ٧٨ ج٢.

وأما حلقات العلم وشيوخها وطريقة تعليمهم فإنها تحتاج إلى بحث كبير قائم بذاته، وإن لدينا من الأخبار ما يملأ أكثر من مجلد في هذا. ولكن المقام يضيق بإيرادها، ويكفي أن نذكر شيئاً موجزاً عن الصحابة والتابعين يتناول طريقة تعليمهم.

وأول ما يسترعى انتباهنا في هذا خطوط كبرى تعتبر من الأسس الهامة في التربية الحديثة، من هذه الأسس:

١ - مراعاة أحوال المحدثين:

فقد لاحظ الصحابة والتابعون أحوال طلابهم ملاحظة دقيقة، فكانوا لا يحدثونهم إلا بما يناسب مداركهم، ويشرحون الأحاديث، ويبينون مناسباتها حتى يدرك الطلاب ما يرويه شيوخهم، يروى عن ابن مسعود أنه قال: «إن الرجل ليحدث بالحديث فيسمعه من لا يبلغ عقله فهم ذلك الحديث، فيكون عليه فتنة^(١)» وفي رواية عنه «ما أنت محدث قوما حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم^(٢)» وعن حماد بن زيد قال: قال أيوب: لا تحدثوا الناس بما لا يعلمون فتضروهم^(٣).

٢ - الحديث لمن هو أهل له:

وكما حرص الصحابة والتابعون على مراعاة أحوال الرواة، حرصوا على نشر الحديث بين أهله وطلابه، ورفعوا عن السفهاء وأهل الغايات والأهواء، فكانوا يحاولون جهدهم ألا يحضر مجالسهم إلا طلاب العلم، وفي هذا كان يقول الزهري: «... وهجته (أى الحديث) نشره عند غير أهله^(٤)»، وكان الأعمش

(١) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٢٩: ب.

(٢) تذكرة الحفاظ ص ١٥ ج١ وروى نحو هذا عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، انظر: المحدث الفاضل ص ١٤٣: ب.

(٣) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٢٩: ب.

(٤) المحدث الفاضل ص ١٤١: أ والهجنة والتهجين الأمر تقييحه.

يرى أن إضاعة الحديث التحديث به عند غير أهله^(١) وكثيرا ما كان يقول: «لا تشروا اللؤلؤ على أظلاف الخنازير يعنى الحديث^(٢)» أى لا تحدثوا الحديث لغير أهله .

ورأى الأعمش شعبة بن الحجاج يحدث قوما، فقال له: ويحك يا شعبة! تعلق الدر فى أعناق الخنازير^(٣)؟ قال مجالد بن سعيد: حدثنى الشعبى بحديث . . فرويته عنه، فأتاه قوم فسألوه عنه، فقال: ما حدثت بهذا الحديث قط، فأتونى، فأتيته، فقلت: أو ما حدثنى؟ قال أحدثك بحديث الحكماء، وتحدث به السفهاء^(٤)؟! وكان يقول: إنما كان يطلب هذا العلم من جمع النسك والعقل، فإن كان عاقلا بلا نسك قيل: هذا لا يناله، وإن كان ناسكا بلا عقل قيل: هذا أمر لا يناله إلا العقلاء^(٥).

وأختم هذه الفقرة بذكر شيء من أساليب الحيطة، التى كان يفعلها زائدة ابن قدامة^(٦) مع من يأتيه طالبًا الحديث، حرصًا منه على صيانة السنة المطهرة وحفظها. روى عمرو بن المهلب الأزدي قال: «كان زائدة لا يحدث أحدًا حتى يمتحنه، فإن كان غريبًا قال له: من أين أنت؟ وإن كان من أهل البلد قال: أين مصلاك؟ ويسأل كما يسأل القاضى عن البيئته. فإذا قال له سأل عنه، فإن كان صاحب بدعة قال: لا تعودن إلى هذا المجلس، فإن بلغه عنه خير أدناه وحدثه؛ فقيل له: يا أبا الصلت لم تفعل هذا؟ قال: أكره أن يكون العلم عندهم، فيصيروا أئمة يحتاج إليهم، فيبدلوا كيف شاءوا^(٧)».

قد يُظنُّ أن فى تشدد زائدة منعًا للعلم ونشره، وأن طريقته هذه تتنافى مع رسالة المعلمين المرشدين الهادين، والحقيقة أن منهجه هذا كان من وسائل المحافظة

(١) المحدث الفاضل ص ١٤١: أ.

(٢) المحدث الفاضل ص ١٤٢: أ.

(٣) المحدث الفاضل ص ١٤١: ب، ولعل الشعبى أنكر ذلك لأنه خشى من القوم السفهاء أن يتخذوا ما حدث به ذريعة إلى أهوائهم.

(٤) تذكرة الحفاظ ص ٧٧ ج١ .

(٥) انظر ترجمته: فى تذكرة الحفاظ ص ١٩٤ ج١ وهو إمام حجة توفى سنة ١٦١ هـ.

(٦) المحدث الفاضل ص ١٤٢: ب.

على السنة، كما كان حائلاً دون أهل البدع والأهواء من أن يستغلوا الحديث الشريف، أو يحرفوه تبعاً لأهوائهم.

٣- طلب الحديث بعد القرآن الكريم:

من البدهى أن يهتم المسلمون بكتاب الله تعالى وحفظه ودراسته وتلاوته، وفهمه وتفسيره. وقد أجمع المحدثون على أنه لا ينبغي أن يطلب المرء الحديث إلا بعد قراءته القرآن وحفظه كله أو أكثره، ثم يبدأ سماع الحديث وكتابته عن الشيوخ، وكان كثير من المحدثين لا يقبلون الطلاب في حلقاتهم إلا إذا وثقوا من دراستهم القرآن الكريم وحفظ بعضه على الأقل، وفي هذا قال حفص بن غياث: أتيت الأعمش فقلت: حدثني، قال: أتحمظ القرآن؟ قلت: لا. قال: اذهب فاحفظ القرآن، ثم هلم أحدثك. قال. فذهبت فحفظت القرآن، ثم جئته، فاستقراني، فقرأته فحدثني^(١).

٤- عدم تتبع المنكر من الحديث:

خشى الصحابة والتابعون من بث بعض الأحاديث الواهية والضعيفة، فنهوا عن روايتها وطلبوا التثبت في الرواية كما سبق أن ذكرنا، وحثوا على رواية الأحاديث المعروفة ونشرها بين طلاب العلم وخاصة الجدد منهم. وفي هذا يروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: «حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون!! أتحبون أن يكذب الله ورسوله»^(٢). قال الإمام الذهبي: «فقد زجر الإمام علي رضي الله عنه عن رواية المنكر، وحث على التحديث بالمشهور، وهذا أصل كبير في الكف عن بث الأشياء الواهية، والمنكرة من الأحاديث في الفضائل والعقائد، والرفائق، ولا سبيل إلى معرفة هذا من هذا إلا بالإمعان في معرفة الرجال»^(٣).

وأما الأحاديث المنكرة والشاذة وطرقها، والأحاديث الموضوعية - فقد كان يحفظها الشيوخ حتى إذا ذكر لهم حديث منها بينوه، وكانوا يروون منها لطلابهم

(١) المحدث الفاضل نسخة دمشق ص ١٩ ج ١.

(٢) تذكرة الحفاظ ص ١٢، ١٣ ج ١ وفتح الباري ص ٢٣٥ ج ١.

(٣) تذكرة الحفاظ ص ١٢، ١٣ ج ١.

بعد بيان عللها، وبعد أن يقطع الطلاب مرحلة جيدة في دراساتهم. وسنين هذا عندما نتكلم عن الحديث الموضوع.

٥- التنوع والتغيير دفعا للملل:

عرف الصحابة والتابعون ما يجدد نشاط طلابهم، فعملوا به، وأفادوا منه لتتحقق الغاية من دروسهم وحلقاتهم، فكانوا يتناولون دراسة الأحاديث المختلفة حيناً، ويتكلمون في الرجال أحياناً، ويتقلون إلى سيرة الرسول ﷺ تارة، ويذكرون أسباب ورود الحديث ومناسبه تارة أخرى.

فكانت دراسة الحديث شيقة، تجذب الطالب إليها لتعدد موضوعاتها وتناولها كثيراً من الأمور التي تتعلق بدينه ودينائه. ومع هذا كان شيوخ الحلقات يخشون إدخال السامة إلى نفوس تلاميذهم، فكانوا يتحولونهم بالموعظة كما كان يفعل رسول الله ﷺ، وكما فعل الصحابة من بعده^(١) وكانت السيدة عائشة توصي التابعين بهذا، فقد قالت لعبيد بن عمير. إياك وإملا ل الناس وتقنيطهم^(٢). ولهذا كانوا لا يطيلون المجلس حتى لا تضيق الفائدة عليهم، وفي هذا يقول الإمام الزهري: «إذا طال المجلس كان للشيطان فيه نصيب^(٣)» (ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول - إذا فاض من عنده بالحديث بعد القرآن والتفسير - : أحمضوا. أي خوضوا في الشعر وغيره...، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: إني لأستجم قلبي بالشيء من اللهو، لأقوى به على الحق^(٤)).

وقد كان الصحابة أحياناً يتناولون في مجالسهم بعض الشعر وأيام الجاهلية ليسروا عن أنفسهم، فيبدلوا الموضوع ليستعيدوا نشاطهم، فعن أبي خالد الوالى قال: «كنا نجالس أصحاب النبي ﷺ، فيتناشدون الأشعار ويتذكرون أيامهم في

(١) انظر هذا: عن عبد الله بن مسعود في مسند الإمام أحمد ص ٢٠٢ حديث ٣٥٨١ جه وجامع بيان العلم ص ١٠٥ ج ١.

(٢) (٣، ٢) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٣٦: أ.

(٤) الإعلان بالتبويخ لمن ذم التاريخ ص ٤١ والله المقصود هنا اللهو المشروع مما يروح القلب ويجدد النشاط.

الجاهلية^(١)»، وكان الزهري يحدث ثم يقول: «هاتوا من أشعاركم، هاتوا من أحاديثكم، فإن الأذن بحاجة، وإن للنفس حمضة^(٢)». وكان يقول: روحوا القلوب ساعة وساعة^(٣).

٦ - احترام حديث رسول الله ﷺ وتوقيره:

ذكرت تمسك الصحابة والتابعين بالسنة، وتقديمها على كل شيء بعد القرآن، فقد كانوا لا يقبلون رأياً مع السنة مهما يكن شأنه، ومهما تكن منزلة صاحبه، وكما تمسكوا بالسنة احترموها مجالس الحديث، ووقروا حفاظه، وتآدب الناس مع حديث رسول الله ﷺ شيوخاً وطلاباً.

عن الأعمش عن ضرار بن مرة قال: كانوا يكرهون أن يحدثوا عن رسول الله ﷺ وهم على غير وضوء^(٤) وكان الأعمش إذا أراد أن يحدث وهو على غير وضوء تيمم^(٥). وقال قتادة: لقد كان يستحب أن لا تقرأ الأحاديث التي عن رسول الله ﷺ إلا على طهور، وفي رواية إلا على وضوء^(٦)، وروى هذا عن كثير من العلماء.

ويذكر سعيد بن المسيب - وهو على فراش المرض - حديثاً عن رسول الله ﷺ، فيقول: أجلسوني، فإنني أكره أن أحدث حديث رسول الله ﷺ وأنا مضطجع^(٧).

قال الرامهرمزي: كان أكثرهم يتطهرون عندما يتصدرون للتحديث فيلبس العالم أحسن ثيابه، ويتوضأ وضوءه للصلاة، ومن ذلك قول أبي العالية: «إذا حدثت عن رسول الله ﷺ حديثاً فازدهر». وكان مالك رضى الله عنه إذا أراد أن يخرج

(١) جامع بيان العلم ص ١٠٥ ج ١.

(٢) جامع بيان العلم ص ١٠٤ ج ١. ميج الشراب من فيه رمى به، وميج الحديث طرحه وملل والحمضة الشهوة للشئ، وحمضت الإبل عن الحمض كرهته وبه اشتتهه. انظر القاموس المحيط.

(٣) جامع بيان العلم ص ١٠٥ ج ١.

(٤) جامع بيان العلم وفضله ص ١٩٨ ج ٢ والمحدث الفاضل ص ١٤٧: أ.

(٥) جامع بيان العلم وفضله ص ١٩٩ ج ٢.

(٦، ٧) جامع بيان العلم وفضله ص ١٩٩ ج ٢.

يحدث تَوْضُحاً وضوءه للصلاة، ولبس أحسن ثيابه، ولبس قلنسوة، ومشط لحيته، فقيل له في ذلك، فقال: «أوقر حديث رسول الله ﷺ»^(١). وكان مالك أحياناً يحدث أبناء كل قطر حتى لا يزداد الازدحام في داره، فكان مناد على بابه ينادى: ليدخل أهل الحجاز، فلا يدخل غيرهم، ثم يخرج فينادى أهل الشام^(٢). . . . يفعل هذا حتى لا يكثر الطلاب، فيكثر السؤال، وتفوت الفائدة جل الحاضرين.

وهناك آداب كثيرة، وأصول متبعة للسؤال والقراءة والعرض على المحدث، والجلوس بين يديه، وحضور حلقات العلم، تكفلت بذكرها كتب خاصة^(٣)، وأفردت لها أبواب في أكثر كتب مصطلح الحديث وعلومه.

٧- مذاكرة الحديث:

لم يكن طلاب العلم يكتفون بحضور مجلس الحديث ثم ينصرفون إلى أعمالهم حتى يحين المجلس القادم، من غير أن يذكروا ما يسمعون. ولم يكن حضور حلقات العلم للتسلية وشغل أوقات الفراغ. . . متى شاء الطالب حضر ومتى أحب انصرف منها، كلا، بل كان الطلاب يحضرون في أوقات معينة يخصصها لهم أستاذهم بعد صلاة الفجر مثلاً حتى الضحى، أو بين الظهر والعصر، فيستأق الطلاب إلى الحلقة قبل انعقادها، ليتخذوا أماكنهم^(٤)، حتى إذا ما حضر الأستاذ كان جميع الطلاب على استعداد لتلقى الحديث عنه. وقد يغيب عن الحلقة طالب، فيسأل عنه الشيخ ويعرف سبب غيابه، وقد يكلف بعض إخوانه السؤال عنه، فالحلقات في العصور الماضية كانت كالفصول النظامية في مدارسنا الحديثة:

(١) انظر: المحدث الفاضل ص ١٤٦: ب.

(٢) انظر: المرجع السابق ص ١٤٧: أ.

(٣) فقد ألف الخطيب كتاباً كبيراً في هذا سماه (الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع) تعرض فيه لجميع ما يتعلق بطلاب الحديث وأساتذتهم ودروسهم ومذاكرتهم. . . إلخ، ولا يزال هذا المؤلف مخطوطاً، ومنه نسخة كاملة في دار الكتب في الإسكندرية، صورت عنها نسخة ونقلت إلى دار الكتب المصرية في ١٩٦٦ لوحة، كل لوحة فوتوغرافية صفحتان من النسخة الأصلية، وقد باشرت تحقيقه مع بعض إخواني، أرجو أن نوفق لنشره فينتفع المسلمون به.

(٤) انظر: انعقاد المجالس في الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع حيث بسط القول في هذا.

لهذا كان أصحاب الحديث يحرصون على حضور مجالسه، ويحفظون ما يسمعون، ويذاكرونه.

وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يفعلون هذا فى عهد رسول الله ﷺ، فعن أنس بن مالك قال: «كنا نكون عند النبي ﷺ، فنسمع منه الحديث، فإذا قمنا تذاكرناه فيما بيننا حتى نحفظه^(١)».

وكان التابعون وأتباعهم يذاكرون حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام جماعات وأفراداً، عن أبى صالح السمان^(٢) قال حدثنا ابن عباس يوماً بحديث فلم نحفظه، فتذاكرناه بيننا حتى حفظناه^(٣). وعن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن عطاء قال: «كنا نكون عند جابر بن عبد الله فيحدثنا، فإذا خرجنا من عنده تذاكرنا حديثه^(٤)». . . وعن مسلم البطين قال: «رأيت أبا يحيى الأعرج - وكان عالماً بحديث ابن عباس - اجتمع هو وسعيد بن جبيرة فى مسجد الكوفة، فتذاكرا حديث ابن عباس^(٥)». وقال مرة عبد الرحمن بن أبى ليلى: «إحياء الحديث مذاكرته، فتذاكروه، فقال عبد الله بن شداد: يرحمك الله! كم من حديث أحيتته من صدرى قد كان مات^(٦)».

وقد تطول مجالس المذاكرة من أول الليل حتى نداء الفجر^(٧)، وكان من طلاب العلم من ينتظر انصرام الليل ليلقى إخوانه فيذاكرهم، وكان إبراهيم النخعى يقول: إنه ليطول على الليل حتى ألقى أصحابى فأذاكرهم^(٨). ومما يروى عن شعبة بن الحجاج أنه خرج من عند عبد الله بن عون، وقد عقد بيديه جميعاً فكلمه

(١) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ٤٦: ب.

(٢) لم يذكر الحاكم لقبه وهو من أصحاب أبى هريرة وقد سمع من ابن عباس وهو ذكوان المدنى. انظر: تهذيب التهذيب ص ١٣٢ ج ١٧.

(٣) معرفة علوم الحديث ص ١٤١.

(٤) كتاب العلم لزهير بن حرب ص ٢٩٠: أ.

(٥) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٨٤: أ.

(٦) كتاب العلم لزهير بن حرب ص ١٩٠: أ.

(٧) انظر: المرجع السابق ص ١٩١: ب.

(٨) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٨٢: ب.

بعض إخوانه، فقال: «لا تكلمنى فإنى قد حفظت عن ابن عون عشرة أحاديث أخاف أن أنساها»^(١).

هكذا كان يذاكر أصحاب الحديث حديث رسول الله ﷺ، حتى ثبت فى صدورهم لا ينسوه.

وكان بعضهم يتخذ التحديث بما سمع وسيلة إلى حفظه، فإذا لم يجد من يحدثه حدث خادمه أو بنيه، وفى هذا يروى عن الإمام الزهرى أنه كان يبتغى العلم من عروة وغيره، فيأتى جارية له نائمة فيوقظها فيقول لها: حدثنى فلان بكذا، وفلان بكذا فتقول: مالى ولهذا، فيقول: قد علمت أنك لا تنتفعين به، ولكن سمعت الآن، فأردت أن أستذكره^(٢)، ولا يجد إسماعيل بن رجاء من يذاكر الحديث معه فيجمع غلمان المكاتب ويحدثهم كيلا ينسى حديثه^(٣).

وكثيراً ما كانت تعقد مجالس المذاكرة وتقام المناظرات بين أصحاب الحديث لتعرف طرقه، ويكشف عن القوى والضعيف منها، وفى هذا يقول يزيد ابن هارون: أدركت الناس يكتبون عن كل - من المشايخ الأقوياء والضعفاء - فإذا وقعت المناظرة حصلوا^(٤).

مما سبق يتبين لنا اهتمام الصحابة والتابعين وأتباعهم بالسنة المطهرة، وحرصهم على الحديث النبوى الشريف، فعرفنا كيف كانوا يحدثون طلابهم، وكيف كانوا يعتنون بصغارهم، ويحرصون على تربيتهم التربية الصالحة، على هدى محمد ﷺ، كما عرفنا آدابهم فى الحديث وطلبه، واحترامهم لعلمائهم؛ وحرص الطلاب على دراسة السنة وحفظها ومذاكرتها وتثبيتها فى صدورهم والعمل بها، كل ذلك يعطينا

(١) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ٤٧: أ.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي ص ١٤٨ ج ٥.

(٣) انظر: المحدث الفاضل نسخة دمشق ص ١٥: ب، وانظر: عيون الأخبار ص ١٣٤ ج ٢ وتهذيب التهذيب ص ٢٩٦ ج ١.

(٤) المحدث الفاضل ص ٨٣: ب، والجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٦٧: أ.

صورة حية عن النشاط الحديثى فى ذلك العصر، صورة مخطوطة عن الحركة العلمية القوية التى كانت فى عصر الصحابة والتابعين، تلك الحركة التى كان لها الفضل العظيم فى حفظ السنة.

وإن ما قدمناه لا يعدو الخطوط العريضة لتلك الحركة الواسعة، التى كانت فى الصدر الأول وقد أغفلنا كثيراً من التفاصيل التى تتعلق بسن السماع وطريقة الرواية والتلقى، وكيفية القراءة على المحدث، وكل ما يتعلق بدرجات تحمل الحديث وأدائه، مما تكفلت بشرحه كتب مصطلح الحديث وعلومه.

وهكذا خرجنا من هذا البحث بخلاصة هامة، هى أن الحديث الشريف لقى عناية وحفظاً واهتماماً عظيماً من أبناء ذلك العصر، الذين تولوا نقله بأمانة وإخلاص إلى الجيل الذى تلاهم، ثم أدت الأجيال المتعاقبة هذه الأمانة حتى وصلت إلينا فى أمهات الكتب الصحيحة.

انتشار الحديث في عصر الصحابة والتابعين

انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، بعد أن عم الإسلام الجزيرة العربية كلها، وأصبحت هذه البلاد قلعة حصينة للإسلام، وقاعدة تنبعث منها أضواء الهداية في العالم، وقد عقد رسول الله ﷺ قبل وفاته لواء جيش أسامة لفتح الشام، ولكن المنية اخترمته قبل إنفاذه، وخلفه الصديق فوجه جيش الرسول ﷺ إلى بلاد الشام، واتسعت الفتوحات الإسلامية، وامتدت الدولة الإسلامية حول الجزيرة العربية، ففتحت بلاد الشام كلها (فلسطين والأردن وسوريا ولبنان) والعراق جميعها في سنة سبع عشرة هجرية^(١)، وفتحت مصر سنة عشرين من الهجرة^(٢)، ووصل المسلمون إلى ما وراء النهر في خلافة عثمان بعد أن فتحوا (فارس) سنة إحدى وعشرين، ووصلوا سمرقند سنة ست وخمسين^(٣)، وما لبثت الرايات الإسلامية أن خفقت في ربوع الأندلس غرباً سنة ثلاث وتسعين^(٤) وارتفعت بنود الإسلاء وأعلامه على ذرا جبال البرانس^(٥) سنة ست وتسعين، وعلى حدود الصين شرقاً سنة ست وتسعين أيضاً^(٦).

كان في طليعة الجيوش الإسلامية صحابة رسول الله ﷺ وكانوا كلما دخلوا بلدًا أقاموا فيه المساجد^(٧)، ومكث فيه بعض الصحابة والتابعين يدبرون أموره، وينشرون فيه الإسلام، ويعلمون أبناءه القرآن الكريم وسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكان الخلفاء يمدون البلاد الجديدة بالعلماء، وقد استوطن كثير من الصحابة رضوان

(١) انظر: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي الدكتور حسن إبراهيم حسن ص ٢٩٩ ج ١ وما بعدها.

(٢) انظر: المرجع السابق ص ٢٣٦ ج ١.

(٣) انظر: المرجع السابق ص ٢٧٩ وما بعدها ج ١.

(٤) انظر: المرجع السابق ص ٣١٣ ج ١.

(٥) انظر: المرجع السابق ص ٣١٨ وما بعدها ج ١.

(٦) انظر: المرجع السابق ص ٣٠٥ ج ١.

(٧) انظر: الخطط للمقريزي ص ٢٤٦ ج ٢.

الله عليهم تلك الأمصار، يرشدون أهلها، ويعلمون أبناءها. وقد دخل الناس في دين الله أفواجًا، والتفوا حول أصحاب الرسول ﷺ، ينهلون من ينبوع التي أخذت عن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، وتخرج في حلقاتهم التابعون الذين حملوا لواء العلم بعدهم، وحفظوا السنة الشريفة، وهكذا أصبحت في الأقاليم والأمصار الإسلامية مراكز علمية عظيمة، تشع منها أنوار الإسلام وعلومه، إلى جانب مراكز الإشعاع الأولى التي أمدت هذه الأقطار بالأساتذة الأول.

ويجدد بنا أن نذكر لمحة موجزة عن مراكز التعليم هذه فيما يخص بحثنا، فتتناول أهم تلك المراكز العلمية والقائمين عليها في الأمصار الإسلامية:

١- المدينة المنورة:

هي دار الهجرة، وحاضرة الدولة الإسلامية، التي آوت الرسول الكريم بعد هجرته، ومعه الصحابة رضوان الله عليهم، وشهدت الجانب التشريعي الأول في صدر الإسلام، وفي مساجدها التف المسلمون حول محمد عليه الصلاة والسلام، يتلقون القرآن العظيم، ويسمعون الحديث الشريف، وفيها شاهدوا قضاءه وقسمته للغنائم، واستنفاره للجيوش، وموادعته لخصومه، وإيها التجأ المسلمون المهاجرون بدينهم، تحت ضغط قريش والقبائل الأخرى في أطراف الجزيرة العربية، وتعلقت بها الأنظار، وعقدت عليها الآمال، حتى كان صلح الحديبية ثم الفتح الأعظم، فأصبحت مركز الحجاز السياسي، وعاصمة الدولة الإسلامية إلى أوائل خلافة علي رضي الله عنه.

وقد يخطر ببالنا أن المهاجرين عادوا إلى مكة بعد وفاته ﷺ، ولكن التاريخ يؤكد لنا أن الصحابة والخلفاء آثروا أن يجاوروا رسول الله ﷺ^(١)، ويقيموا حيث أقام. لذلك نرى في المدينة كبار الصحابة الذين رسخوا في العلم، وكانت لهم مكانة عظيمة في الحديث، ومن هؤلاء أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم

(١) انظر: طبقات ابن سعد ص ٣٢٨ ج ٥ وفيه كان يكره المسلمون المهاجرون أن يعود أحدهم إلى مكة بعد أن فارق الرسول ﷺ في المدينة.

وأبو هريرة وعائشة أم المؤمنين، وعبد الله بن عمر وأبو سعيد الخدري، وزيد بن ثابت الذى اشتهر بفهم القرآن والحديث والفرائض خاصة، وكانت له مكانة رفيعة عند الخلفاء الراشدين حتى إنهم ما كانوا يقدمون عليه أحداً فى القضاء أو الفتوى والفرائض والقراءة^(١).

وقد تخرج فى المدينة كبار التابعين، ومنهم سعيد بن المسيب، وعروة ابن الزبير، وابن شهاب الزهري، وعبيد الله بن عتبة بن مسعود، وسالم بن عبد الله بن عمر، ومحمد بن المنكدر وغير هؤلاء ممن كانوا مرجع الأمة فى السنة والقضاء والفتوى.

٢- مكة المكرمة:

لما فتح رسول الله ﷺ مكة، خلف فيها معاذاً يعلم أهلها الحلال والحرام، ويفقههم فى الدين، ويقرئهم القرآن الكريم، وكان معاذ من أفضل شباب الأنصار علماً وحلماً وسخاء، شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، وكان يعدُّ من أعلم الصحابة بالحلال والحرام. قال رسول الله ﷺ فيه: «معاذ بن جبل أعلم الناس بحرام الله وحلاله»^(٢) وقال عليه الصلاة والسلام: «خذوا القرآن من أربعة من ابن مسعود، وأبى، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبى حذيفة»^(٣). وقد روى عنه عدد كبير من الصحابة، منهم عبد الله بن عباس، الذى كانت له الصدارة بعد أن عاد من البصرة إلى مكة المكرمة، كما كان فى مكة عتاب بن أسيد الذى أمره رسول الله ﷺ للصلاة فى أهلها^(٤)، وأخوه خالد بن أسيد، والحكم بن أبى العاص، وعثمان ابن أبى طلحة وغيرهم^(٥).

وقد تخرج فى مكة على أيدي الصحابة مجاهد بن جبر، وعطاء ابن أبى رباح، وطاوس بن كيسان، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم^(٦).

(١) انظر: تاريخ دمشق ص ٢٨٤ ج ٦ وسير أعلام النبلاء ص ٢١٥ ج ١ وتذكرة الحفاظ ص ٣٠ ج ١.

(٢) سير أعلام النبلاء ص ٣٢٠ ج ١. (٣) سير أعلام النبلاء ص ٣١٩ ج ١.

(٤) المرجع السابق ص ٣٢١ ج ١. (٥) انظر: معرفة علوم الحديث ص ١٩٢.

(٦) انظر: فجر الإسلام ص ١٧٤.

ولا بد أن نذكر هنا علو منزلة مكة المكرمة، وأثرها في تبادل الثقافة ونشر الحديث النبوي في مواسم الحج، حيث يلتقى فيها المسلمون ويجتمع أكثرهم بصحابة رسول الله ﷺ وبالتابعين، يحملون معهم الكثير الطيب من حديثه عليه الصلاة والسلام إلى بلادهم، ولا تزال لمكة والمدينة هذه المكانة إلى يومنا هذا، وستبقى ما بقي الإسلام إلى يوم الدين.

٣- الكوفة:

لقد نزل في الكوفة عدد كبير من أصحاب رسول الله ﷺ، في عهد عمر رضى الله عنه، حين فتحت العراق للمسلمين، وأصبحت الكوفة والبصرة قاعدتي الفتح الإسلامى في خراسان وفارس والهند، فقد هبط الكوفة ثلاثمائة من أصحاب الشجرة، وسبعون من أهل بدر^(١) من أشهرهم على بن أبى طالب، وسعد ابن أبى وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعبد الله بن مسعود وغيرهم^(٢). وكان لعبد الله بن مسعود أثر كبير في رفع اسم الكوفة، لما بذله في سبيل تعليم أبنائها، وقد تخرج في هذه المدرسة كبار التابعين الذين حفظوا الشريعة وحافظوا على السنة المطهرة، فقد كان في الكوفة ستون شيخاً من أصحاب عبد الله ابن مسعود، وكان في بنى ثور الذين نزلوا الكوفة ثلاثون رجلاً، ما فيهم رجل دون الربيع بن خثيم^(٣) المشهور بعبادته وورعه وعلو مكانته في الحديث، وكان فيها كميل بن زيد النخعي، وعامر بن شراحيل الشعبي، وسعيد بن جبير الأسدي، وإبراهيم النخعي، وأبو إسحاق السبيعي، وعبد الملك بن عمير^(٤) وغيرهم.

٤- البصرة:

ونزل البصرة من الصحابة رضوان الله عليهم أنس بن مالك، وكان إمام البصرة في الحديث، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن عباس الذى ولى إمرتها لأمير

(١) انظر: طبقات ابن سعد ص ٤ ج ٦.

(٢) انظر: معرفة علوم الحديث ص ١٩١.

(٣) انظر: طبقات ابن سعد ص ٤ ج ٦.

(٤) انظر: معرفة علوم الحديث ص ٢٤٣-٢٤٨.

المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه، ونزل فيها غير هؤلاء عتبة بن غزوان، وعمران بن حصين، وأبو برزة الأسلمي، ومعقل بن يسار، وعبد الرحمن ابن سمرة، وأبو زيد الأنصاري، وعبد الله بن الشخير، والحكم وعثمان ابنا أبي العاص وغيرهم^(١).

وأشهر من تخرج في مدرسة البصرة الحسن البصرى الذى أدرك خمسمائة من الصحابة، ومحمد بن سيرين، وأيوب السختياني، وبهز بن حكيم القشيري، ويونس بن عبيد، وخالد بن مهـران الحذاء، وعبد الله بن عون، وعاصم ابن سليمان الأحول، وقتادة بن دعامة السدوسي، وهشام بن حسان^(٢) وغيرهم. وأما بغداد فلم تشتهر إلا منذ عهد المنصور العباسي.

٥- الشام:

نزل الشام من الصحابة عدد كبير كانوا في جيش الفتح الإسلامي، وقد استوطن أكثرهم المدن الكبرى بادئ الأمر، ثم ما لبث سكان القرى أن تمسكوا ببعضهم عندما شعروا بالفائدة العلمية الكبرى التى حملها إليهم المسلمون، ومن الصعب حصر عدد الصحابة الذين حلوا في بلاد الشام، ولكن الوليد بن مسلم يقرب هذا لنا فيقول: «دخلت الشام عشرة آلاف عين رأت رسول الله ﷺ^(٣)»، وكان يزيد بن أبى سفيان قد كتب إلى عمر بن الخطاب ليعينه بالعلماء، ليفقهوا أهل الشام^(٤) فأرسل إليه معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبا الدرداء - الذين توزعوا في بلاد الشام، فأقام عبادة في حمص، وأبو الدرداء في دمشق، ومعاذ في فلسطين، ثم أرسل عمر بعد هؤلاء عبد الرحمن بن غنم^(٥).

ونشطت الحركة العلمية في بلاد الشام وخاصة في دمشق أيام الأمويين، ومازال بها فقهاء ومحدثون ومقرئون^(٦)، وانتشر فيها العلماء حتى أضحت قرية داريا

(١) انظر: معرفة علوم الحديث ص ١٩٢.

(٢) انظر: معرفة علوم الحديث ص ٢٤٨.

(٣) انظر: التاريخ الكبير ص ١٦٩ ج ١.

(٤) انظر: فجر الإسلام ص ١٨٨، ١٨٩.

(٥) انظر: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ١٣٨.

حاضرة العلم والأدب فى غوطة دمشق، ويقول السمعاني: إنه كان فى داريا جماعة كثيرة من العلماء المحدثين قديماً وحديثاً، ومن نبغ فيها من الصحابة عبد الرحمن بن يزيد الأزدي الداراني، ويعد فى الطبقة الثانية من فقهاء الشام^(١).

وقد نزل بلاد الشام غير الصحابة المذكورين أبو عبيدة بن الجراح، وبلال ابن رباح، وشرحبيل بن حسنة، وخالد بن الوليد، وعياض بن غنم، والفضل ابن العباس بن عبد المطلب - وهو مدفون بالأردن -، وعوف بن مالك الأشجعي، والعرباض بن سارية^(٢) وغيرهم.

وتخرج على أيدي الصحابة فى هذه المدرسة كبار علماء الشام من التابعين، منهم سالم بن عبد الله المحاربي قاضى دمشق، وأبو إدريس الخولاني (عائذ ابن عبد الله) الذى تولى القضاء بدمشق لمعاوية وابنه يزيد، ومنهم أبو سليمان الداراني، قاضى دمشق لعمر بن عبد العزيز، وليزيد وهشام ابني عبد الملك، قضى لهم ثلاثين سنة، ومنهم عمير بن هانئ العنسي الداراني المحدث^(٣).

وتخرج فى هذه المدرسة عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، الذى يقرب بمالك وأبي حنيفة ويلقب بإمام أهل الشام، ومكحول الدمشقي، وعمر بن عبد العزيز، ورجاء بن حيوة^(٤)، وبجير بن سعيد الكلاعي، وثور بن يزيد الكلاعي، وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر^(٥) وغيرهم.

٦- مصر:

دخل المسلمون مصر فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، بإمرة عمرو ابن العاص رضى الله عنه، وكان معه من الصحابة عدد كبير منهم الزبير بن العوام، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، والمقداد بن الأسود، كانوا على رأس

(١) انظر: غوطة دمشق ص ١٣٤.

(٢) انظر: معرفة الحديث ص ١٩٣.

(٣) انظر: غوطة دمشق ص ١٣٤، ١٣٥ وانظر: تاريخ داريا للقاضي عبد الجبار الخولاني ص ٢٩-٧٢.

(٤) انظر: فجر الإسلام ص ١٨٩.

(٥) انظر: معرفة الحديث ص ٢٤٢.

المدد الذى أرسله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص^(١)، كما كان معه عبد الله ابن عمرو: أحد الصحابة المكثرين عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، والذى كان يدون الحديث بين يدي رسول الله ﷺ، فقد مكث بمصر إلى ما بعد وفاة والده، وعنه روى كثير من محدثيها.

ونزل مصر من الصحابة عقبه بن عامر الجهنى، وخارجة بن حذافة وعبد الله ابن سعد بن أبى سرح، ومحمية بن جزء، وعبد الله بن الحارث بن جزء، وأبو بصرة الغفارى، وأبو سعد الخير، ومعاذ بن أنس الجهنى، ومعاوية ابن حُديج، وزيايد بن الحارث الصدائى وغيرهم^(٢).

وتخرج على أيدي هؤلاء فى هذه المدرسة، يزيد بن أبى حبيب محدث الديار المصرية، وعمر بن الحارث، وخير بن نعيم الحضرمى، وعبد الله بن سليمان الطويل، وعبد الرحمن بن شريح الغافقى، وحيوة بن شريح التجيبى، وغيرهم، وقد كان ليزيد بن أبى حبيب أثر بعيد فى نشر الحديث فى مصر، فقد تتلمذ عليه الليث بن سعد، وعبد الله بن لهيعة^(٣) اللذان تتلمذ عليهما خلق كثير، وكانا فى عصرهما محدثي الديار المصرية.

٧- المغرب والأندلس:

كان عمرو بن العاص قد وصل إلى برقة وطرابلس سنة (٢١هـ) فى عهد عمر ابن الخطاب، فاستأذن عمرو الخليفة بفتح أفريقية فلم يأذن له، فاستجاب لأمر أمير المؤمنين وعاد إلى مصر، فكان عمرو وأصحابه أول المسلمين الذين دخلوا أطراف المغرب، وعندما تولى عثمان رضى الله عنه الخلافة أذن لأمر مصر عبد الله بن سعد ابن أبى سرح بغزو أفريقية، وكان ذلك سنة (٢٥هـ) ثم أمده بجيش من المدينة فيه جماعة من الصحابة، منهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص،

(١) انظر: تاريخ الإسلام السياسى ص٢٣٦ ج١.

(٢) انظر: معرفة علوم الحديث ص١٩٣ وانظر: فتوح مصر لابن عبد الحكم ص٢٤٨ - ٣١٩، وانظر: حسن المحاضرة ص٧٢ وما بعدها ج١.

(٣) انظر: معرفة علوم الحديث ص٢٤١.

وعبد الله بن جعفر، والحسن والحسين، وعبد الله بن الزبير، ولقيهم عقبة بن نافع ببرقة، فتابعوا فتح البلاد^(١)، ثم خرج لفتح المغرب معاوية بن حُديج سنة (٣٤ هـ) وكان في غزاته هذه جماعة من المهاجرين والأنصار^(٢)، وقال سليمان بن يسار: غزونا أفرقة مع ابن حُديج ومعنا من المهاجرين والأنصار بشر كثير^(٣). ثم ولى عقبة بن نافع المغرب، وكان في جيشه كثير من الصحابة والتابعين وهو الذى فتح المغرب الأقصى ووطد أركان الإسلام فى شمال أفريقيا^(٤).

وقد نزل أفرقية من الصحابة غير الذين ذكرناهم مسعود بن الأسود البلوى أحد الصحابة الذين بايعوا الرسول ﷺ تحت الشجرة، والمسور بن مخرمة، والمقداد ابن الأسود الكندى أحد الصحابة السابقين^(٥)، وبلال بن حارث بن عاصم المزنى صاحب لواء مزينة يوم الفتح، وجبله بن عمرو بن ثعلبة أخو أبى مسعود البدرى، كان فاضلاً من فقهاء الصحابة، وسلمة بن الأكوخ المشهور وغيرهم كثير^(٦).

ودخل أفرقية من التابعين خلق كثير منهم السائب بن عامر بن هشام، ومعبد أخو عبد الله بن عباس. وعبد الرحمن بن الأسود، وعاصم بن عمر بن الخطاب، وعبد الملك بن مروان، وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وسليمان بن يسار فقيه المدينة، وعكرمة مولى ابن عباس^(٧)، وأبو منصور والد يزيد بن منصور من كبار التابعين، كما أرسل عمر بن عبد العزيز عشرة من التابعين يفقهون أهل أفرقية منهم: حبان بن أبى جبلة، وإسماعيل بن عبيد الله الأعور، وإسماعيل ابن عبيد^(٨)، وعبد الرحمن بن رافع التنوخى الذى ولى قضاء أفرقية، وسعيد

(١) انظر: الاستقضا لأخبار دول المغرب الأقصى ص ٦٧ - ٧٠ ج ١.

(٢)، (٣) فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم ص ١٩٣.

(٤) انظر: فتوح مصر وأخبارها ص ١٩٣ وما بعدها. والاستقضا ص ٦٩ - ٧٠ ج ١.

(٥) انظر: الاستقضا ص ٢٥ - ٨٠ ج ١.

(٦) انظر فتوح مصر وأخبارها ص ٢٤٨ - ٣١٩. وطبقات علماء أفرقية ص ١٦، ١٧.

(٧) لم يدخل عكرمة غازياً، وكان له مجلس فى مؤخر مسجد الجامع فى غربى المنارة، الموضع الذى يسمى بالركيبة انظر: طبقات علماء أفرقية ص ١٩.

(٨) هو صاحب سوق مسجد إسماعيل والأحباس، وهو الذى يقال له تاجر الله انظر: طبقات علماء أفرقية ص ٢٠.

ابن مسعود التجيبي وغيرهم^(١) ممن ساهموا في نشر الإسلام وتعليم أبناء البلاد وتفقيهم.

وقد تخرج على أيدي هؤلاء من أهل أفريقية خلق كثير منهم: زياد بن أنعم المعافري، وعبد الرحمن بن زياد، ويزيد بن أبي منصور، والمغيرة بن أبي بردة، ورفاعة بن رافع، وعمرو بن راشد بن مسلم الكناني، وعمران بن عبد المعافري، والمغيرة بن سلمة، ومسلم بن يسار الأفريقي، وغيرهم ممن حمل لواء العلم^(٢).

وما لبثت مدينة القيروان أن أضحت محط أنظار أهل المغرب فكان فيها سحنون ابن سعيد، وسعيد بن محمد الحداد^(٣). كما لمعت قرطبة وأشبيلية وغرناطة وبلنسية، من بلدان الأندلس في مطلع القرن الثالث الهجري بيحيى بن يحيى، وابن حبيب، وبيحيى بن مخلد وغيرهم^(٤).

٨- اليمن:

كان رسول الله ﷺ قد وجه معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري إلى اليمن، كما نزل غيرهما من الصحابة فيها، وتخرج في اليمن علماء من أئمة التابعين، منهم همام ووهب ابنا منبه، وطاوس وابنه، ثم معمر بن راشد، ثم عبد الرزاق ابن همام وأصحابه^(٥).

٩- خراسان:

نزل خراسان من الصحابة وتوفي بها بريدة بن حصيب الأسلمي، وهو مدفون بمرو، وأبو برزة الأسلمي، والحكم بن عمرو الغفاري، وعبد الله بن خازم الأسلمي المدفون بنيسابور، وقثم بن العباس المدفون بسمرقند^(٦)، وفي هذه البلاد ظهر كبار المحدثين.

(١) انظر: طبقات علماء أفريقية ص ١٩، ٢٠.

(٢) انظر: طبقات علماء أفريقية ص ٢١ - ٢٤.

(٣) انظر: إعلام الموقعين ص ٢٧ ج ١.

(٤) انظر: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ١٤٠، وانظر: إعلام الموقعين ص ٢٧ ج ١.

(٥) انظر: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ١٣٩، ١٤٠.

(٦) انظر: معرفة علوم الحديث ص ١٩٤.

ففى (بخارى) كان عيسى بن موسى غنجار، وأحمد بن حفص الفقيه، ومحمد ابن سلام البيكندى، وعبد الله بن محمد السندى، ثم أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل البخارى.

وفى (سمرقند) أبو عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى، ثم محمد ابن نصر المروزى.

كما ظهر فى الشاس بما بعد الحسن بن الحاجب والهيثم بن كليب.

وفى (فرياب) تخرج جماعة من العلماء أقدمهم محمد بن يوسف الفريابى صاحب الثورى، ثم القاضى جعفر بن محمد الفريابى صاحب التصانيف المتوفى سنة (٢٢٦هـ) (١).

من كل ما تقدم يتبين لنا أن المسلمين عندما ساروا إلى البلاد المجاورة، لم يسيروا وراء دنيا يصيبنها، ولا خلف تجارة يربحون منها، وإنما انطلقوا ليحرروا الأمم من الظلم والطغيان، وينشروا بين أبناء البلاد الجديدة تعاليم الإسلام، ويأخذوا بأيديهم إلى جادة الصواب، ويفتحوا عيونهم على نور الهداية والحق، وبهذا، تتميز الفتوحات الإسلامية عن جميع الفتوحات التى عرفها التاريخ، إلى جانب ميزات كثيرة يضيق المقام بذكرها، ومن أجل تحقيق تلك الغاية المذكورة، استقر علماء الصحابة فى الأقطار المختلفة، وأمد الخلفاء الأمصار بالعلماء ليسرعوا فى حركة التحرير والهداية والتعليم، وقد التف المسلمون الجدد حول من عندهم من الصحابة.

وكان الصحابة يتفاوتون فى العلم، ولم يكن عند كل واحد منهم جميع ما قاله الرسول ﷺ وشرعه، ولهذا بدأت الرحلات العلمية فى سبيل جمع الحديث وتلقيه، وقد ظهرت هذه أيضاً بين الصحابة، وكثرت الرحلات من التابعين وأتباعهم ليسمعوا ما فاتهم، أو ليتأكدوا مما سمعوا، ولهذا نرى كثيراً من التابعين يقصدون الصحابة فى أقاصى البلاد يسافرون الليالى والأيام فى طلب حديث أو حديثين كما سيظهر لنا بعد قليل. وقد رأينا بروز بعض الصحابة ولمعانهم فى الأقطار المختلفة، فانطبع تلامذتهم بطابعهم وساروا على نهجهم، ثم حلوا محلهم وحملوا لواء العلم ونشره.

(١) انظر: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ١٤٣.

الرحلة فى طلب الحديث

كانت الرحلة فى طلب الحديث قائمة فى عهده ﷺ، فكان بعض من يسمع بالرسالة الجديدة، يسافر إلى الرسول عليه الصلاة والسلام لىسمع القرآن الكريم، ويتفهم تعاليم الإسلام، ثم ينصرف إلى قومه بعد أن يعلن إسلامه كما فعل ضمام ابن ثعلبة.

فالرحلة فى عهد الرسول كانت عامة من أجل معرفة تعاليم الدين الجديد.

وأما فى عهد الصحابة والتابعين وأتباعهم فقد تمت رحلات كثيرة من العلماء فى طلب الحديث خاصة، وكثيرا ما كانوا يقطعون المسافات الطويلة لسماع حديث أو التأكد من حديث وضبطه، أو للالتقاء بصحابى وملازمته، للأخذ عنه، لأن الصحابة فى عهد التابعين توزعوا فى البلدان ونقلوا فى صدورهم الحديث النبوى، فكان لا بد لمن أراد أن يجمع حديث محمد ﷺ من أن ينتقل من بلد إلى آخر، وراء الصحابة الذين سمعوا منه ورأوه وأخذوا الأحكام عنه، ثم رحل أتباع التابعين إلى التابعين، ولازموهم وأخذوا عنهم، حتى تم جمع الحديث فى مراجعه الكبرى، ومع هذا لم تنقطع رحلة العلماء فى سبيل المذاكرة والعرض على الشيوخ المشهورين.

ومما يروى فى رحلة الصحابة ما حدث به عطاء بن أبى رباح قال: (خرج أبو أيوب الأنصارى إلى عقبة بن عامر، يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ، ولم يبق أحد سمعه من رسول الله ﷺ، غيره وغير عقبة، فلما قدم إلى منزل مسلمة بن مخلد الأنصارى - وهو أمير مصر - فأخبره فعجل عليه، فخرج إليه فعانقه، ثم قال له: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ، لم يبق أحد سمعه من رسول الله ﷺ غيرى وغير عقبة، فسابعث من يدلنى على منزله، قال: فبعث معه من يدل على منزل عقبة، فأخبر عقبة، فعجل فخرج إليه فعانقه، فقال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ

لم يبق أحد سمعه من رسول الله ﷺ غيرى وغيرك في ستر المؤمن، قال عقبه: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر مؤمناً في الدنيا على خزية^(١) ستره الله يوم القيامة». فقال له أبو أيوب: صدقت. ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته، فركبها راجعاً إلى المدينة، فما أدركته جائزة مسلمة بن مخلد إلا بعريش مصر^(٢).

لقد خشى أبو أيوب أن يكون نسي شيئاً من حديث «ستر المؤمن»، فأحب أن يتأكد من ذلك، ويتثبت من صحة ما يحفظه عن الرسول الكريم، فرحل من الحجاز إلى مصر، يقطع الفيافي والقفاز في سبيل ذلك!!

وعن ابن عسقلان أن جابر بن عبد الله حدثه: أنه بلغه حديث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: (فابتعت بعيراً، فشدت إليه رحلي شهراً حتى قدمت الشام، فإذا عبد الله بن أنيس، فبعثت إليه أن جابراً بالباب، فرجع الرسول فقال: جابر بن عبد الله؟ فقلت: نعم فخرج فاعتنتني. قلت: حديث بلغني لم أسمعه، خشيت أن أموت أو تموت، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يحشر الله العباد - أو الناس عراً غرلاً^(٣) بهما» قلنا: ما بهما؟ قال: «ليس معهم شيء، فيناديهم بصوت يسمعه من بعد - أحسبه قال - كما يسمعه من قرب: أنا الملك، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار يدخل النار، وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة، قلت: وكيف؟ وإنما تأتي الله عراً بهما؟ قال: «بالحسنة والسيئة»^(٤).

(١) الخزية هو الشيء الذي يستحيا منه. وانظر: لسان العرب ص ٢٤٧ ج ١٨.

(٢) معرفة علوم الحديث ص ٨ وجامع بيان العلم وفضله ص ٩٣، ٩٤ ج ١ وذكره زهير بن حرب في كتابه «العلم» عن رجل ولم يذكر أبا أيوب الأنصاري انظر: ص ١٨٧ ب كما ذكر الخطيب مثله في الجامع لأخلاق الراوى ص ١٦٨ ب - ١٦٩ أ.

(٣) غرلاً جمع (أغرل) وهو الذي لم يختن.

(٤) الأدب المفرد ص ٣٣٧ وجامع بيان العلم وفضله ص ٩٣ ج ١ والجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٦٨ ب.

وتنشط الرحلات في طلب الحديث بين التابعين وأتباعهم، حتى لقد كان أحدهم يخرج وما يخرج إلا حديث عند صحابي يريد أن يسمعه منه لأنه سمعه من رسول الله ﷺ، وفي هذا يروى عن أبي العالية قوله: «كنا نسمع الرواية عن أصحاب رسول الله ﷺ بالبصرة، فلم نرض حتى ركبنا إلى المدينة فسمعناها من أفواههم^(١)».

وخرج الشعبي في ثلاثة أحاديث ذكرت له، فقال لعلي: ألقى رجلا لقي رسول الله ﷺ^(٢)، وروى الزهري عن سعيد بن المسيب قال: إن كنت لأسير ثلاثاً في الحديث الواحد^(٣). وقام أبو قلابة بالمدينة وليس له بها حاجة إلا رجل عنده حديث واحد ليسمعه منه^(٤). ويروى أن «مسروقاً» رحل في حرف^(٥)، ويظهر أن «مسروقاً»^(٦) كان كثير الترحال، ولذلك قال عامر الشعبي: ما علمت أن أحداً من الناس كان أطلب لعلم في أفق من الآفاق من مسروق^(٧). ويروى عن الشعبي أنه حدث بحديث ثم قال لمن حدثه: (أعطيتك بغير شيء، وإن كان الراكب ليركب إلى المدينة فيما دونه^(٨)).

وكان الصحابة الكرام يشجعون على طلب العلم، وعلى الرحلة من أجله، من هذا ما روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله تعالى مني تبلغه الإبل لأتيته^(٩)» وكانوا يرحبون بطلاب العلم كما سبق أن ذكرنا،

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ص ١٦٨: ب والكفاية ص ٤٠٢.

(٢) انظر: المحدث الفاضل ص ٢٩: أ.

(٣) انظر: المحدث الفاضل ص ٢٨: ب والجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ص ١٦٩: ب، وتذكرة الحفاظ ص ٥٢ ج١ وجامع بيان العلم وفضله ص ٩٤ ج١.

(٤) انظر: المحدث الفاضل ص ٢٨: ب.

(٥) جامع بيان العلم وفضله ص ٩٤ ج١.

(٦) ومسروق هو ابن الأجدع الهمداني أبو عائشة تابعي ثقة يمني الأصل، رحل إلى المدينة أيام أبي بكر ثم سكن الكوفة وشهد حروب علي وكان يفتى توفي سنة (٦٢) هـ انظر: تهذيب التهذيب ١٠٩٢ ج١٠.

(٧) جامع بيان العلم وفضله ص ٩٤ ج١ والمحدث الفاضل ص ٢٩: أ.

(٨) جامع بيان العلم وفضله ص ٩٤ ج١، ومعرفة علوم الحديث: ٧ وقد أخرج الشيخان نحوه انظر: صحيح البخاري بحاشية السندی ص ١٧١ ج٢ وانظر: الأدب المفرد ص ٨١، وصحيح مسلم ص ١٣٥ ج١، كما أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه.

(٩) الكفاية ص ٤٠٢.

وكل هذا حجب إلى التابعين الرحلة، حتى إن عامرا الشعبي قال: «لو أن رجلا سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن،، لسمع كلمة حكمة ما زابت أن سفره ضاع^(١)»، وفعلا كانوا يرحلون إلى الصحابة ولا يرون أن سفرهم قد ضاع.

عن كثير بن قيس قال: كنت جالسا عند أبي الدرداء في مسجد دمشق، فأتاه رجل، فقال: يا أبا الدرداء! أتيتك من المدينة، مدينة رسول الله ﷺ لحديث بلغني أنك تحدث به عن النبي ﷺ قال: فما جاء بك تجارة؟ قال: لا. قال: ولا جاء بك غيره؟ قال: لا. قال: فأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض، حتى الحيتان في الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب إن العلماء ورثة الأنبياء إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر^(٢)».

وعن زر بن حبيش^(٣)، قال: أتيت صفوان بن عسال المرادي، فقال: ما جاء بك؟ قلت: أنيط العلم. قال: فأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها، رضا بما يصنع^(٤)».

وأخبار العلماء ورحلاتهم كثيرة يضيق المقام بذكرها، ويكفي أن نذكر شيئاً منها، فقد رحل ابن شهاب إلى الشام ليلقي عطاء بن يزيد وابن محيريز وابن حيوة؛ ورحل يحيى بن أبي كثير إلى المدينة للقاء من بها من أولاد الصحابة، ورحل محمد بن سيرين إلى الكوفة فلقى بها عبيدة وعلقمة وعبد الرحمن ابن أبي ليلى، ورحل الأوزاعي إلى يحيى بن أبي كثير باليمامة ودخل البصرة، ورحل سفيان الثوري إلى اليمن ثم دخل البصرة، ورحل عيسى بن يونس إلى الأوزاعي

(١) جامع بيان العلم وفضله ص ٩٥ ج ١، والرحلة الحجازية والرياض الأنسية ص ١٤.

(٢) سنن البيهقي ص ٨١ ج ١، والجرح والتعديل ص ١٢ ج ١ وقد رواه ابن ماجه في سننه ص ٩١ ج ١.

(٣) زر بزاي مكسورة فراء مشددة بوزن هر.

(٤) سنن ابن ماجه ص ٨٢ حديث ٢٢٦ ج ١ طبعة عيسى البابي الحلبي وانظر: مجمع الزوائد ص ١٣١ ج ١، والجرح والتعديل ص ١٣ ج ١ وأنيط العلم أي أطلبه وأستخرجه من عند أهله.

بالشام . . . ورحل شعيب بن أبي حمزة إلى الزهري وهو يومئذ بالشام . وأما رحلة العلماء من بلد إلى بلد في الإقليم الواحد، فكثيرة كثيرة تفوق الحصر^(١) .

وكان لرحلات العلماء في طلب الحديث أثر بعيد في انتشار السنة، فمما لا شك فيه أن الراوى يرى من يروى عنه، ويقف على سيرته، ويسأل أهل بلده عنه، وكثيراً ما كانوا يتشددون في السؤال عن الراوى، حتى يقال لهم أتريدون أن تزوجوه؟

كذلك كان للرحلات فائدة عظيمة في معرفة طرق كثيرة للسحديت الواحد فقد يسمع الراوى من علماء المصر الذى رحل إليه زيادات لم يسمعها من علماء مصره وكثيراً ما يجد عندهم ما لم يجده عند شيوخه، وقد تقع مناظرات بين علماء الأمصار، تعارض فيها طرق الحديث الواحد؛ فيحصل فيها القوى ويعرف الضعيف، ويزداد طلاب العلم معرفة لأسباب ورود الأحاديث، حين يلقون من سمع من رسول الله ﷺ، أو أفتاه أو قضى له .

ويكفى الرحلة فائدة أن تساعد على نشر الحديث وجمعه، وتمحيصه والتثبت فيه، فكان لرحلات الصحابة والتابعين وأتباعهم أثر جليل في المحافظة على السنة وجمعها وتدلنا تراجم الرواة على الصعاب التى كانوا يستعذبونها فى سبيل حفظ السنة، وسماع أحاديث رسول الله ﷺ من منابعها الصحيحة، ويكفي أن نقرأ فى ترجمة أحدهم، هو فلان اليمنى، ثم المكى، ثم المدنى، ثم الشامى، ثم الكوفى، ثم البصرى، ثم المصرى، لنعرف مقدار ما قاسى فى قطع الفيافى والبعد عن الأهل والأوطان، وما تحمله من مشاق حتى أصبح من رجال الحديث فى عصره . فلم يصلنا الحديث النبوى فى مصنفاته وكتبه، مرتباً بأسانيده، وعلى أبواب جامعة كل منها فى موضوع خاص، إلا بعد أن خدمه الصحابة، والتابعون وأتباعهم، والعلماء من بعدهم ووقفوا عليه حياتهم، فجزاهم الله عنا خير الجزاء، وأسكنهم فسيح جنانه .

(١) انظر: المحدث الفاضل ص ٣١: ب و ٣٢: ب وراجع جامع بيان العلم ص ٩٤، ٩٥ ج١ .

لا نشك في أن الحديث النبوي قد انتشر جنباً إلى جنب مع القرآن الكريم، ووصل إلى الأقاليم الإسلامية الجديدة، ولا نشك في أن العلم لم يبق مقصوراً على مكة والمدينة، بل تعددت مراكزه ومجالسه، وشهدت الأمصار البعيدة ما شهدته حواضر العالم الإسلامي، من نشاط علمي على يدي الصحابة رضوان الله عليهم، ويمكننا أن نتصور مدارس متنقلة في مختلف الأمصار، روادها الصحابة وكبار التابعين، إذ كان يكفي لأهل خراسان مثلاً أن يحل بينهم صحابي حتى يسرعوا إليه، ويلتفوا حوله ويسألوه ويستقرئوه القرآن ويسمعوا منه حديث الرسول ﷺ.

هذا جانب عظيم يصور لنا انتشار السنة في أبعاد حدود الدولة الإسلامية ولكن لا بد لنا من أن نقول الحق وإن كان مرأً، فإن بعض من دخل الإسلام - إثر الفتح - إنما دخله نفاقاً، أو اعتنقه على أنقاض عقائد فاسدة بقيت رواسبها في نفسه، فجعلته ينتهز أية فرصة للطعن في الدين الجديد، الذي قوض أمجاد آبائه، وأطاح بمصالحه الشخصية، ومنهم من كان متعصباً لقومه وبلده. وهناك بعض الخلافات السياسية التي حدثت عقب الفتنة وظهور الفرق والأحزاب، كل هذا كان عاملاً في ظهور الوضع في الحديث الشريف إلى جانب انتشاره في الآفاق. وهذا ما سندرسه في الباب التالي ونفصل أسبابه ونبين جهود الصحابة والتابعين وأتباعهم، والعلماء من بعدهم، في سبيل المحافظة على السنة، وصيانتها من عبث أعداء الدين.
